الجمهورية العراقية ـ وزارة الاعلام

الطبيعة عند المتنبي



د. عبدالله الطيّب

منشورات وزارة الاعلام ــ الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي

بغداد ــ تشرين الثاني ١٩٧٧

وأَحبُّ إليَّ ان يقال أبو الطيب • وما أُريدَ بقولهم المتنبي أول الامر الا النَّبْزُ والعيْبُ ، فصيَّره الاستعمال ؛ وما كان لشِعْرِه من سيرورة وشهرةٍ ، له كالحلية ؛ وذَكَرَ ابن خلكان ان بعض المغـاربة كانوا يقولون (المتنبِّه) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالةٍ على الفطنة وكَشْفِ ستار طبائع النفوس ، مكانَ دلالته الأُولى على دعوى النبوة •

هذا ، وقولنا الطبيعةُ نعنى به ظاهرَ معنى هذا اللفظِ ، لانتعمَّقُ وراءَ ذلك بشيءٍ ولله درُّ أَبى الطيِّب إذْ يقول :

أَبْلَغُ مـا يُبْلَغُ المرادُ به الطَّبْعُ
وعِنْـدَ التَّعَمُّـقِ الزَّلَـلُ

فمن ظاهرِ معناه صِفاتُ الأَمكنة والأَزمنة من أجْواءٍ وفصُولٍ وشمسٍ وأَصيلٍ وقمَرٍ وليْلٍ ونُجومٍ والحيوانِ بَرِّيهِ وبَحْريِّهِ وجَوِّيه ؛ وزَعَم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بَعْضِ ما كان يُناقش به الدكتور احمد امين رحمه الله أَيَّام الرسالةِ في سنواتِ الأَربعين أَنَّ الغَزَلَ من بابِ الطبيعةِ لأنَّ جمالَ النِّساءِ من مفاتنِ الطبيعة ذِرْوَةٌ ـ ولا يَخْلُو مقالُه هذا من صوابٍ بايةِ ما كانَ كثيراً ما يقع وَصْفُ الرِّياضِ والغيوثِ في مَعْرِض ذكر الطُّلول ووَقَفات بُكاءِ العُشَّاق وصفاتِ الظَّعائن الحِسَانِ كأبياتِ لبيدٍ :

فَعلا فُروعُ الأيهقـــانِ وأَطْفَلَتْ

بالجَلْهتَيْنِ ظِبـــاؤُهـــا ونَعامهـا

وابيات علْقَمةَ :

تسقِي مَذَانِبَ قد مالت عَصيفَتُها

حَدُورُهـــا من أَتِيِّ الماءِ مَطْمومُ

وابيات عنترة :

أو رَوْضَةً انُفاً تَضَمَّن نَبْتَهـــا

غَيْثٌ قَلِيـــلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمعلم

وكان ذو الرمة من الاسلاميين ربما مزَج بَيْنَ اوصـاف النّسـاءِ والطبيعةِ مَزْجاً فَصار بذلك الى نوعٍ من التصوف • وفي شِعْره تأَمُّل" وعَمَل" كَثير" ويعجبني قوله :

ذَكَرتْكِ أَن مَرَّتْ بنا أمُ شادِنٍ

أمامَ المَطَايا تَشْـــرَئِبُ وتَسْنَحْ

من المؤلِفَاتِ الرَّمْلِ أَدْماءُ حُرَّةٌ

شُعَاعُ الضُّحى في مَتْنِها يَتَوضَّحُ

وهنا صُورَةُ الظَّبْيةِ ورمالها وتأَلّقُ الشُّعَـــاعِ على مْتِنهـــا أَوْضَحُ من صورةِ المليحةِ ، وصار ذو الرمة بهـــذه الصُّـــورَةِ الى تجويدٍ ومَزْجٍ بَيْنَ الطَّبيعةِ والمَرْأةِ أَقوى في قوله :

بَرَّاقَةُ الجيدِ واللّبَاتِ واضِحَـــة"

كأَنَهَا ظَبْية" أَفْضَى بهـــا لَبَبُ

بَيْنَ النهار وبَيْنَ الليْلِ مِنْ عِقَدٍ
عَلَى جَوانبه الأَسْباطُ والهَدبُ

صُورَةُ بروزِ الظَّبْيَةِ من كُثْبانِ الرَّمْلِ واضواء الأصيل، وضُروب نَبات الطَّرْفاءِ والشُّجَيْرات ذاتِ الورق السَّبِط ههنا بَيِّنَةُ الأَبْعادِ والمَعالم ، ومع ذلك تُخالطِها مَعانِي الغَزَلِ في هذه الابيات : اللَّبات الواضِحَةُ والجِيدُ البرّاق من المرأة •

وأتمَّ ذو الرمة إحْكَام المَزْجِ بين الطبيعةِ والجمال البشري في قوله :

كأن عمودَ الفَجْرِ جيدٌ ولَبَّةٌ
بعَيْدَ الدُّجى من حُرَّةِ الوَجْهِ سَافِرِ

هُنا صُورَةُ امْرأةٍ جَميلةٍ بَرْزة سافرة الوَجْهِ على رأسِها الخِمَارُ وجيدُها ولبّاتها مُشْرِقَةٌ ومن حَوْلِها سَوادٌ • وصُورَة أوَّلِ طلُوعِ الفَجْرِ بنورِهِ النَّاعِمِ المخالطِ الظلامِ وشَفَقِه الممزوج البَياضِ بالأرْجُوان ويُطيف بـه بُروزُ الأفـاقِ بنباتها وسُهولها وربُاها ••

شدَّ ما تُشْبِه هذه الصورة لَوْحة ليناردو داڤنشي الَّتي سماها (الضاحكة) أو (الباسمة) (لاجيوكندا) •

وقد يَتَساءَلُ المَرء هل هذا من باب توارد الخَواطِرِ كما يَقَعُ الحافِرُ على الحافر ، أمْ وَقَع الى ليناردو داڤنشي بَعْضُ ما تُرْجِمَ الى اللاتينية أو عنها من شِعْرِ غَيْلانَ • ؟

ويُخَيلُ الى الكثيرين ، وهـذا من بعض ما دَفَع الدكتور زكي

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أن موضوع أشعار الطبيعة فن اختص به الافرنج ، وقصر فيه العرب ؛ فهب شوقي رحمه الله في :

آذار أقبل قم بنا يا صاح

وغيره يستدركون ذلك .

والمتأمل ربما صح عنده ان اوصاف البساتين ، وهي التي حلت محل اوصاف الأبل والقفار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق، قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممن عرفوا العربية فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كلمة ابن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلماً
في الكرى أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى
تنقل الخطو على ما يرسم
زمراً بين فرادى وثنى
مثلما يجلو الوفود السوسم
والحيا قد جلل الروض سناً
فثغور الدهر منه تبسم

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بله المشارقة من أمثال الصنوبري وأبى عبادة وابن الرومي وأبى تمام .

وأَلْفِتُ النَّظر ـ على سبيل المثال ليس إلاّ ـ الى قصيدةِ الشاعر الانجليزي أندرو مارڤيل (١٦٢١ ـ ١٦٧٨) التي أسماها (خَواطِر في حديقة) (Thoughts in agarden) فان اول ما استَهلها بذكر النَّخْلة وليس في بلاده نخل ، والظِلُّ الذي وصفه أول الامر ظل نخلة ـ ثم قال إن خلاط الناس ليس بشيء اذا قيس الى الوحدة والعزلة والخلوص من دنيا المجتمع الى فكرةٍ خضراء في ظل أخضر •

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وشبه هذا بقول أبى العلاء لا يخفى :

ذَراني وكُتْبي والرياضَ ووَحْشَتي ... أَكُون كَوحْشِيٍّ بإحْدَى الأمالس

يُسَوِّفُ أزهارَ الربيع تَعِلَّةً ... ويأمنُ في البَيْداءِ شَرَّ المجالسِ

وقوله الظل الأخضر فيه نفس ابى تمام حيث قال :

يا صاحبى تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الارض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر

فكأنما هو ظل أخضر •

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stummbling on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصْفِ ابن الرومي للرازقي وأوصافِ ابى الطيّبِ لثمار شِعْب بوان :

لهــا ثَمَرٌ تُشِيرُ اليك منه
بأشرِبَةٍ وقفن بلا أواني

وكم يَود المرء لو تفرغ بَعْضُ طلاب العربية لدرسِ اللاتينية ليطلعوا على ما تُرْجِم من أَشْعار العربية وميراث آدابها ذى الكنوز وأَخذَهُ مِنْ بَعْدُ الافرنجُ أَخْذاً من دون اعتراف اما جَهْلاً أَو عامدين . ويُنْسَبُ اكثر افتتانِ الافرنج بالطبيعة في القرنين الماضييْن إلى الحركة الروماتتيكية والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مَذْهَبِ من سبقوهم إلا بالّذي روّجه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا لا يخلو من روح تَصَوف لعله اسلامي المعدن والسِّنْخ في اصله ، وفي تأملات رَوسو وهو يَمْشى منفردا وبعض ما جاء فِي اعترافاتِه ما يُشْعِر بذلك .

هذا ولَفَتَ نظري من أشعار الانجليز الروماتتيكيين ومن اليهم بوَجْهِ

خاص قصيدة كيتس عن البلبل (١٧٩٥ - ١٨٢١) فقد استهلها بذكر الهمّ والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم وقصيدة وليم بلاك (١٧٥٧ - ١٨٢٧م) يذكر النمر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمِرُ يا نمر ..
ذا اللهب الوهاف ...
في غابات الظلام .....

ثم وصف خُطا النمر وذِراعَيْه وجبروته (وحين أخَذَ قَلْبُكَ في الوَجِيب ، يا للسّاعد .. ويا للقدم ... الرّهيب) .

لا شك ان وليم بليك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصالة والرومانسية الفذّة قد اطّلع على ترجمة من كلمة ابى الطيب النادرة :

وَرْد اذا ورد البحيرة شاربا
وَرد الفراتَ زئيره والنّيلا
ما قُوبلت عيناهُ الا ظُنَّتا
تَحْتَ الدجى نارَ الفريق حلولا
يَطَأُ الثرّيَ مترفقا من تيهه
فكأنّهُ أسٍ يَجُسُّ عليلا
ويرد عُفْرَته الى يافُوخه
حتى تَصير لرأسه إكليلا
وتَظُنه ممّا يُزَمْجِر نفسه
عنها لشدّة غيظه مشغولا

قَصرت مَخَافتُــــه الخُطـــا فكأنما
رَكِبَ الكميُّ جـواده مشـــكولا
ألقى فريســـته وبَرْبَــر دونهـــا
وقـــربت قُرْبـــاً خالـــه تطفيـــلا
ما زالَ يَجمَـــعُ نفســـه في زوره
حتى حَسِبْتَ العرض منـــه الطولا
أسد يرى عضـــويه فيـــك كليهمـــا
مَتْنـــاً ازلَّ وســـاعدا مفتـــولا
وَيدُقُ بالصَّدرِ الحجـــارَ كأنّـــه
يَبْغي إلى ما فـــي الحضيض سبيلا
أَنَفُ الكريم من الدنيـــة تـــاركٌ
فـــي عَيْنِه العددَ الكثير قليـــلا
والعـــارُ مضّـــاض وليس بخـــائف
من حَتْفـــه من خـــاف مما قيـــلا

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيـــدة وليم بلاك من تَتبُّع معاني أبى الطيب في صِفة عَيني الاسد ، وهيئة تَبَهْنُسِه بمشيته وَتَجمعـــه وزمجرته ليَثِب وشجاعةِ قلبـــه وقلة اكتراثه بالعدد الكثير وتَوَهُّمِ ابى الطيب ان عِنْدَهُ معاييرَ من قضايا النّبْلِ الذي يأبى الدنية من مضض العار ....

What immortal hand or eye
Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبى الطيب :

حتى حَسِبْتَ العرض منه الطولا

In what distant deeps or skies
Burnt the fire of your eyes

وهو تكرار لقوله الأول

.... burning bright
In the forests of the night...

وقوله الذي ترجمته (غابات الدجى) أو (غابات الظلام) انما هو من قول أبى الطيب (تحت الدجى) •

وحام وليم بلاك حول معانى الحكْمة التي عنــد أبى الطيب بنوع من جُهْدٍ وتكلف غوص •

What the hammer? What the chain?
In What furnace was thy brain

وتكرار معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قَبْلُ جوفاء ذات قعقعة ليست في مستوى ما تقدمها ••••

ثم أيّ مخٍ للأسدِ ؟ ••• إنّما هو قَلْبُه الباسل ولو كان معه مُخٌ لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لَوْلا العقول لكان أدْنَى ضَيْغَمٍ
أَدْنى إلى شَــرفٍ من الانســان

هذا ومِثْلُ هذا التّوافق والتوارد على الخواطرِ يَعْسرُ أَن يُظَنّ فيه أنه لم يَنْظُر فيه الآخِرُ وهو وليم بلاك الى الأوّل وهو أبو الطيب ، وقد نَعْلَمُ أَن علوم العربِ وآدابهم كانت تُتَرْجَمُ ويُلِمُّ بها اولـو

الثقافة في اوربا ــ ومن حسب أنه انما كان يُتَرْجَمْ الطب والفلسفة والرياضيات والفَلَكُ وما إلى ذلك ولا يُؤْبَهُ الى الأَدبِ فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) ــ (١٧٨٣-١٨٤٢) في احدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشاق العرب وجميل بثينة أن رجال الفكر الاوربيين لما وجدوا آداب العربية ؛ مع الذي كان من معرفة العرب بعلم يونان ، لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديمة، احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعمري ان في هذا الذي قاله لدليلا على اطلاعهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك ؛ وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن طريق أحد مدرسيه •

واذ ثَبت اطلاعُ مفكري الافرنج على آداب العربية فما شَابه اساليب روائِعها من روائعهم فعنها أخذوه ؛ ولا نَلتَفِتُ لما اظهروه من إعراض واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وجحوداً • واحْتِجانَ صَليبيَّةٍ على الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد ، فقصيدة البحتري التي يوازن بينها وبين قصيدة أبي الطيب ، مع وصفها غِيلَ الأسد والمنظر المحيط به كانت أشد حرصا على اظهار بسالة الممدوح ومهارته بالسلاح وفنون القتال :

هزبراً مشى يَبْغي هِزَبْراً وأغلبا
من القوم يغشى باسل الوجه اغلبا

حَمَلت عليه السّيْف لاعزمــك انثنى
ولا يَدُكَ ارتدَتْ ولا حَدُه نبـــا

لكنَّ أبا الطيب مع ذِكره بَدْرَ بن عمـــار بالقوة والشجاعة وقولـه فيـــه :

أمْعفِّرَ الأســـدِ الهِزَبْرِ بسَـوْطه
لمــن ادّخـرت الصـارمَ المصـقولا

(ولا شك أنَّ بدرا أطربه هذا المدح) إنما كان إعْجابه بالأسد ، هذا الحيوانِ الفذّ الشجاعة الباهرِ الشراسة ، الباسل مَنْظرِ الوجه •

ومع أن ظاهر قوله :

أســدٌ يرى عُضْوَيْهِ فيـك كليهما
مَتْنــاً ازلَّ وســـاعَدًا مفتــولا

كأنه في صِفَة جسم بدر بن عمار الرياضي ذى العضلات ، لكن باطنه في صِفَة الاسد اذ المتن الأزل والساعد المفتول هما عضوا الأسد والذي عند بدر بن عمار شَيْءٌ يُشَبَّه بهما ، فتأمل •

وأحسب أن أبا الطيب لم يَخْلُ من استشعار نَوْعٍ ســـماجةٍ في ممدوحه الانطاكي اذ قال :

لم نَفْتَقِدْ بك من غَيْثٍ سوى لَثَقٍ
ولا من البحر غَيْرَ الريح والســـفن

ولا مــن الليثِ الا قُبْـحَ منظره
ومن ســواه سوى ما لَيْسَ بالحسن

وهل قبح الليث الا أنّ منظرهُ مُخيفٌ ؟

القى فريسته وبَرْبَرَ دونها
وقربت قُرْباً خاله تطفيلا

أسدٌ يرى عضويه فيك كليهما
مَتْناً أزل وساعدا مفتولا

ووصف أبي الطيب للفارس والفرس بَعْدُ لا يَخْلو من إشعار بضَعْفهما ازاء هذا « الخُبَعْثِنَةِ الشجيع » ـ ولعلّه ما غلبه الا كَثْرة العدد عليه من كلِّ جانب ـ تأمّل قوله :

قَصَرت مَخَافَتُه الخُطَى فكأنّما
رَكِبَ الكَمِيُّ جوادَه مَشْكولا

أليس فيه إشْعارٌ بخوف الفارس كما قد خافت فرسُه الظامِئَةُ الفصوص التي :

يأبى تفردُها لها التَمْثيلا

هذا وذكر « اللّثَقِ » الذي مرّ آنفاً ما أرى أبا الطيب قَصَدَ بِذِكره تَفْضيل صاحبه على الغَيْث كما قد قصد الى إثبات تجربة أحسّها من خُبْثِ اللثق ـ وهو الطين اللزِج الذي تَصيرُهُ الارضُ الزراعية غَيْرُ ذاتِ الرمل بَعْدَ المطر ـ وسماجةِ الوَحْلِ فيه • وقد يَجُودُ الغيث ولا يكون مَعَهُ لَثَقٌ •

وشبيه بذكره اللّثق ، ذِكرهُ الريحَ والسُفن إذ معنى ذلك الدنوار ولعله عاناه في بعض اسفاره والله أعلم • هـذا وأبو الطيب عميق الاعجاب بجِنس الأسد وقوله :

كل غـــاد لحاجـــة يتَمنَّى يتفارَسْنَ جهرة واغتيـــالا
من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصابا لـــم يلتمسه سؤالا
كل غـــاد لحاجـــــة يتَمنَّى ان يكون الْغَضَنْفَرَ الرئبالا

فيه تأويلُ جانبٍ كثير من هذا الاعجاب ، إذ الناس سِباعٌ والأسد أَصْرَحُ وأنْبَلُ سَبُعِيَّةً منهم ومن قـــدر على أن يَكُونه في القـــوة والإقدام والْهَيبة كَأنَهُ لا يتردَّد • وعند نفسه كان أبو الطيب أســـداً ـ كما قال :

فارْم بى مـــا أردت مِنّى فـــإنى
أســـدُ الْقَـــلب آدمـــيُ الـــرواء

وقريب منه قوله من قبل :

وجاهِلٍ مدَّه في جهـــله ضـــحكى
حتى أتَتْـــهُ يَـــدٌ فرَّاســـة وفم
اذا رأيت نُيـــوبَ الليـــث بـــارزةً
فـــلا تظنّنَّ ان الليْـــثَ يبتســـم

فدل بهذا على المكتمن في نفسه من ان صاحِبَ القلب الاسدي أسدٌ له انياب وأظفار فلا عَجَبَ أن استشعر نحوه ممدوحوه كل حذر •

وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :ـ

أجارُكِ يا أســـدَ الفراديس مُكْرَمُ
فتســـكنَ نَفسِي أم مهانٌ فمُسْلَمُ
ورائـــي وقـــدَّامى عـــداةٌ كثيـــرة
أحاذرُ من لصٍّ ومنـــك ومنهـــم

فهل لك في حِلْفى على ما أُريده
فأنى بأَسباب المعيشة أعلم

ولم يخل في هذا من نظرٍ الى كلمة القتَّال الكلابي حيث زَعم أَنه صَحِبَ النمر في الغار:

ولى صاحِبٌ في الغارِ هدَّكَ صاحباً
هو الجَوْنُ الا انه لا يُعَلَّلُ

اذا ما التقَيْنا كان جُلُّ حديثِنا
صُمَاتٌ وطرْفٌ كالمعابِلِ أطْحَلُ

فأغلِبُه في صَنْعَةِ الزاد إنني
أمِيطُ الأذى عنه وما إنْ يُهَلَّلُ

وكأنَّ أَبيات القَتَّالِ هذه من فُكاهاتِ العرب وَنوادِرهم وأكاذيبِهم كالذي زَعَمُوا من تَزوجَ السِّعْلاة وقِتالِ الشِّقِّ والغول •

ويقول أبو الطيب :

ومن يَجْعَلِ الضِّرْغامَ بازاً لِصَيْده
تَصَيَّدَهُ الضِّرْغام فِيمَا تَصيَّدا

فما كان يَغِيبُ عنه استحالة حِلْفِ أسْدِ الفراديس • ولكنَّه كما قال :

تَمَنٍ يلذ المستهام بذِكْرِهِ
وان كان لا يُجْدِي فتيلاً ولا يُجْدى

وَغَيْظ على الأيّام كالنار في الحشَى
ولكنه غيظ الأسيرِ على القدّ

وقد نَعلَم قِصَّةَ ناسكٍ كليلة ودِمْنَة إذ أصاب فأرةً صغيرةً فدعا الله ان تَصيرَ آدميَّةً حتَّى يَقدر على تربيتها فلما شَبَّت واراد تزويجَها لم يَجِدْ لها مِمَا يعجبها كَفئاً إلاّ الفأر فدعا الله أن تكون فأرةً.

وقد نعلم إعْجابَ الروماتتكبين ووليم بلاك منهم – ببدَاوة الأعراب وتوحُّشهم.

فلعل هذا الاعجاب دَفَعه وهو لا يَشْعُر الى أن يُحَوِّلَ ما أصاب من صِفَةِ الأسد في الذي بلغه من شِعْرِ المتنبي أو ما ترتَّبَ بَعْدَ تأثيره أو حُذِيَ فيه على أسلوبه ، فيجعله في النمر :

Tigre, tiger, burning bright
In the forests of the night.

وما عَرفَ أو أبَه أنَّ نَمِرَهِ مُخَطَّط ، وهو ضَرْب من وحوش بلاد الهند ، وأَن نَمِرَ العرب ذو نُقط ، ومنه قولهم نَمِرة يَعْنُون الثوب ذا النقط والالوانِ واياه عنى ابن مالك حيث قال :–

ولا يجوز الابتدا بالنَّكِرهْ ما لم تفد كعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ

ولعله لو فطن الى ذلك لكان سمى كلمته هذه بالأسد مكان النمر ، أم تراه عمدا آثر تسميتها النمر بقصد التعمِيَةِ وليخفى مكان أخْذِه حيث أَخذ من أبي الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سَمِعَ ابْنُ عمته به وبحاله
فَنَجا يُهَرْوِلُ أمس منك مهولا

وليست الهرولةُ بأسرع الجَرْي ، كالذي يقع عند الفرار من مطَارِدٍ •
ويذكر أصحاب الصَّيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قُتِلَ بموضعٍ
سارعت الأسود الى الانتقال منه تَستَوْبِئُه •

وأمر مما فرَّ منه فراره وكقتله ألاَّ يموت قتيلاً
وكأنَّ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي أستوبأ المكان فانتقلَ عنه :

تَلِفَ الذي اتخَذَ الجَراءة خُطَّة
وَعظ الذي اتَّخذَ الفِرَار خَليلا

وهذا كالرثاء للأُسود عامة ، أنها مع شجاعتها وقُوَّة اجسادها لاتقوى
على مكر الانسان واحتياله واغتياله • وهل قَتَلت أَسَدَ اللامية الاَّ
وَثْبَتُه ، حيث تلقتَّه الرماح ، فنزف ثمَّ :

خذلَتْه قُوَّته وقد كافحته فاستَنْصَر التسليم والتجديلا
قبضَتْ منيَّتُهُ يَدَيه وعُنْقَه فكأنما صادفَتْهُ مغلولا

هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولا ميته التي رثى بها أم سيف الدولة :

نعِدُّ المشرفية والعوالي وتَقْتلنا المنون بلا قتال

إنهما « كَفَى بِهما شاهِداً على ما ذكرته من انْفراده بالابداع » والذي
يُشير اليه ههنا ما ذكره قوله عند الموازنة بينه وبين الطائيين « ولما تأملت
شعره •••• وجدته أقساما خمسة ، خمس في الغاية التي انفرد بها دون
غيره » ••• وهي الغاية التي وصف بَعْضَ امثلتها في بعض المواضع فقال :
« وهذا الموضع لم يأتِ فيه أحدٌ بما يَثْبُت على المحَكّ الا أبو الطيب
وَحْدَه وأما غَيْرُه من مُفلِقي الشعراء قديما وحديثا فانهم قد قَصَروا
عنه » ••••• هذا مع زَعْمِه أَن أبا الطيب أراد ان يسلك مسلك ابى تمام

فقصَّرت عنه خطاه ولم يُعْطِه الشِّعْرُ من قياده ما أعطاه » • وهذا أسوقه لمجرد التنبيه لا لأزْعُمَ به أن أبن الاثير وَقَع به في تناقض • إذ لا ريب انه كان يرى أن روائع المتنبي آجود من روائع سواه ولذلك زعم انه خَاتِم الشعراء واستشهد بقوله :

لا تمدحَنَّ كريماً بعد رُؤْيته
إن الكرامَ بأسْخاهم يداً خُتِموا

ولا تُبالِ بشِعْرٍ بعد شاعره
قد أُفْسِدَ الْقَوْلُ حتى أُحْمِدَ الصمم

وليت أبا الطيب رحمه الله عاش الى زماننا هذا ليشهد كيف أُفْسِدَ الْقَوْلُ وأُحْمِدَ الصسم وجاءتنا نُمُورُ أضرابِ « بلالِكَ » التي كانت عِنْدَه أسدا ••••

أسداً فرائسُها الأُسود يقودها
أَسدٌ تكون له الأُسودُ ثعالبا

فصَيَّرناها نَحْنُ بافتنان المحاكاةِ الكاذبة سَنانِيرَ •

هذا ، ومـا بَرّز أبو الطيب هذا التبريز الذي أشار اليه ابن الاثير وجَزَم به الذهبيُ اذ قال « ليس في العالم احدٌ أشعَرُ منه أما مثله فقليل» ، بأَنَّه أدقُ الشعراءِ غَوْصا على المعانى أو أكثرهم تشبيهاً واستعارةً ، أو أَخْبَرُهم بتوليدِ المعاني أو أشدهم افتنان في الأَوْصاف ، أو أَرقّهم غزلاً ، أو أَقواهم أَسْرَ جزَالةِ الفاظٍ ، أو اجْهَرُهم رَنَّةَ جَرْسٍ غناءٍ ، وأبْرَعهم وَشْيَ صناعةٍ بديعٍ ••• كلُ اؤلئك له منهنَّ نَصيبٌ جيد واف ، غير أن من الشعراء من يتقدَّمُه فيهنَّ جميعا أو في بَعضهن دون

بعضٍ كالذي ذكر ابن الاثير من أمرِ أبي تمام حيث قال « هو ربُّ معانٍ وصيقل البابٍ وأذهانٍ » وجعل أبا الطيب دونه في هذا المسلك وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في بابِ الغوص على المعاني وتوليدها ، وكأنَّ الإجماع قائم بين النقاد على أنَّ ديباجة البحتري في المكان الذي لا يُدرَكُ ولذلك قال ابن الاثير إنه اجاد سَبْكَ اللفظ على المعنى وأراد ان يَشعُر فغنَّى . وإذن فبماذا برز أبو الطيب ؟. وأحسبُ أنَّ ابن الاثير قد وَهِمَ في باب موازنتهِ بين البحتريّ وأبي الطيب في نعتِ الاسد اذ فَضّل هذا ثم قال في توضيح أسباب هذا التفضيل : « والبحتري وان كان أفضل من المتنبي في صوغِ الألفاظ وطلاوة السبك فالمتنبي أفضَلُ منه في الغوص على المعاني » ومحلّ وهمه أن هذه الصفةَ هي عينها التي قدّم بها أبا تمام عليه ثم عدَل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفرد بالابداعِ وذلك في الخُمسِ الذي نصَّ عليه ولا يمكن ان يكون انفراده بالابداع بسببِ الغوص على المعاني وهو ما خبَّرنا أنه قد قصَّرت فيه خطاه عن خطا أبي تمام .

وأقربُ الى الصواب ما ذكره ابن رشيق من أنَّ أبا الطيب كان يهجُم على معانيه كالفارسِ . والحقُّ أن سببَ تبريزِ أبي الطيّب هو قوةُ شخصيَّتِه ، وحرارةُ عاطفتِه وصِدقِه في البيان عن نفسه . وقد نبَّه ابنُ جِنّي على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » . وقد فَطَن أبو العلاءِ الى أمرِ شخصية أبي الطيب حين اعتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن القارح من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذمّ الى هــذا الزمان اهيــله
ونامَ الخـــويدمُ عن لَيْلنـــا
من لِي بِفَهْمِ أهيل عَصْرٍ ...الخ

« ولا ملامة عليه ، انما هي عادة صارت كالطَّبْع ، فما حَسُن بهـــا مألوف الربع » .

وقد كان أبو الطيب رحمه الله كثير الاسفار . تَنَقَّـــل بَيْن العراق والشام أيام صباه وشبابِه قَبْل ان يلقى سيف الدولة . وقال في القصيدة التي مدح بها أبا القاسم العلوي :

إلَيَّ لعمري قَصْدُ كلِّ عَجِيبَـــةٍ
كأنّيَ عجيب فـــي عيون العجـــائب

بأيّ بلادٍ لـــم أَجُـــرَّ ذوائبـــي
وأيِّ مكانٍ لـــم تَطَـــأْهُ ركائبي

وقال في مرثيته لأمه :

لِئنْ لذَّ يَوْمُ الشـــامتين بموتهـــا
فقـــد ولدت مني لأنفهـــم رَغمـــا

تغرَّب لا مســـتعظِماً غَيْر نفســـه
ولا قَابِـــلاً الا لخالقـــه حُكْمـــا

ولا ســـالكاً الا فؤاد عجـــاجَةٍ
ولا واجـــدا الا لمَكْرُمَـــةٍ طعمـــا

يقولون لي ما أَنْت في كل بَلْـــدةٍ
وماتَبْتَغِي ما أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمى

وقال يَذْكر فَقْره وسَيْره على قدميه :

ومَهْمَهٍ جُبْتُهُ على قَدَمي
تَقْصُر عنه العَرامِسُ الذُلُل

بصارمي مُرْتَدٍ مخَبْرَتِي
مُجْتَزِىءٌ بالظَّلامِ مُشْتَمِل

اذا صَديقٌ نكِرْتُ جانِبَه
لم تُعْيِني في فِراقهِ الحِيَلُ

في سَعةِ الخافِقَيْنِ مضطربٌ
وفي بلادٍ من أُخْتِها بَدَل

وتنَقَّل أيام سيف الدولة يَصْحَبُه في حروبه وفي سوى ذلك من ضروب ارتحاله واكثر ما كان يغزو سيف الدولة بلاد الروم ، وربَّما خرج عليه بَعْضُ القبائل فحاربهم في البادية ـ من ذلك قوله :

طلبْتَهمُ على الأَمْواهِ حتَّى
تخوَّفَ ان تُفَتِّشَه السحاب

فبتَّ لياليا لا نَوْمَ فيها
تَخب بك المُسَوَّمَةُ العِراب

يَهُزّ الجَيْشُ حولك جانِبَيْه
كما نَفَضت جَنَاحَيْها العقاب

وتسألُ عنهم الفلواتِ حتَّى
أجَابك بَعْضُها وهُم الجواب

وفي سفر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلا :

واشقَى بلادِ اللهِ ما الرومُ أهلُها
بهذا وما فيها لمَجدِكَ جاحد
شننتَ بها الغاراتِ حتَّى تركتَها
وجَفْنُ الذي خلفَ الفرنجةِ ساهد

ومثلا :

وَصُول إلى المُستَصعَبات بخَيْلِه
فلو كان قَرْنُ الشَّمْس ماءً لأوردا
سَرَيْتَ الى جَيْحَانَ من أرضِ آمدٍ
ثلاثاً لقد أدناك ركْضٌ وأبعدا

وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر الى مصر ، وكان بعض سفَرِه فرارا حثيثاً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدةٍ مَدَحَ بها كافوراً :

وجدت أنْفع مالٍ كنت أذْخَرهُ
ما في السوابقِ من جَرْيٍ وتَقْريب
قَشَّنَ المَفاوِزَ حتَّى قال قائلُها
ماذا لَقينا من الجُرْدِ السراحيب
تَهْوِى بمُنْجَرِدٍ ليست مذاهِبُه
للبْسِ ثَوْبٍ ومأكُولٍ ومشروبِ
يَرْمِي النُّجومَ بعيْني من يُحاولها
كأنَّها سَلَبٌ في عَيْنِ مسلوب

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذئابَ الإنسِ طاوِيَةً
تُراقِبُ الجَدْيَ في الخَضْراءِ مسبوتا

وقد النَعْتُ بهذا المعنى في كتابي (مع أبى الطيب) ؛ وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأَخْذِ من أبى الطيب والتَّسلُّقِ على دَرَجِ مَراقيهِ •

وقِصَّةُ فرارِه من كافورٍ معروفة ، وقد ذكرها وذكر الإِبلَ البُجَاوِيَّةَ التي اجتاز عليها التِّيه في كلمته :

الأ كُلُّ ماشيةِ الخَيْزَلَى فِدى كلّ ماشيةِ الهَيْدَبى
وكلِّ نَجاةٍ بُجاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وَمَابِي حُسْنُ المَشى
ولكنهّن حِبالُ الحياةِ وكَيْدُ العداةِ وَمَيْطُ الأذى

حتى صار الى العراق •

وقد زارَ أرض فارس ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أرىَ أَسفى وما سِرْنا بعيداً
فكَيْفَ إذا غدَا السَّيْر ابْتِراكا

فزُلْ يا بُعْدُ عن أَيدِي ركابٍ
لها وَقْعُ الأَسِنَّةِ في حشاكا

وأيّاً شِئْتِ يا طُرُقي فكُونِي
أَذاةً أو نَجاةً أو هلاكا

رووا أن عضد الدولة قال : (تَطيَّرْت عليه من تَرْكه النجاةَ بَيْنَ الأذاة والهلاك •)

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافيةَ البيتِ الهلاكَ فهلك ، هذا وجميع ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد أفصح عَنْهُ بصدقه وحرارةِ عاطفته وقُوَّة شخصيته • فمن ذلك ما ضَمَّنه التشبيهَ والاستعارةَ وصُوَرَ البيان مثل قوله :

هُو البَحْرُ غُصْ فيهِ إذا كان ساكِناً
على الدرِّ واحْذَرْهُ إذَا كان مزبدا

وقوله :

ويُخْشَى عُبابُ البَحْرِ وهو مَكانَهُ
فكيف بِمَنْ يَغْشَى البِلاَدَ إذَاعَبَّا

وقوله :

هَل الحَدَثُ الحمراءُ تَعْرِفُ لونها
وتَعْلَم أَيُّ الساقِيَيْنِ الغَمائم

بناها فأَعْلَى والقنا تَقْرَعُ القنا
ومَوْجُ المنايا حَوْلها مُتلاطم

فكما في البيتين الأوَّلَيْنِ صُورَةُ البحر مُزْبداً وصورته يَغْشَى الساحِلَ ويلطم صَخْرَه ورمله ههنا صُورَة صَخْرَةٍ عاتيةٍ وسط البحر يُحيطُ بها صَخَبُ الأَمواجِ وهي الصُّورة المستعارة لصفة القَلعةِ وصِراعِ الجيوش حَوْلها ههنا •

وقوله :

حواليْهِ بَحْرٌ للتجافيفِ مائجٌ
يسير به طَوْدٌ من الخَيْلِ أَيْهَم

وهَهنا أيضا كامِناً وراءَ الاســتعارةِ إحْسَاس" قَوِيّ باتســاع الْبَحْرِ وعظمته وارتفاع الجبل وشموخه ، ولا رَيْبَ أَنَّ هذا شعور" انطبع في نَفْسِ أبي الطيب من مشاهدةِ جبال لُبْنان وشَواطِيء سَواحِل الشام • ومِمَّا يدلك على صِحَّة هــذا الذي نَذْهَبُ اليه قوله مثــلا يُشَبِّهُ نفسه بالبحر والجبال على نَحْوٍ من تشبيهه نَفْسَه بالأسد :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّنِي
الْجِبالُ وبَحْرٍ شَاهدٍ أَنَّنِي الْبَحْرُ

ومن امثلة ما ضَمَّنَه التشبيه والصُّورَ البيانيةَ من انطباع نَفْسِيّ ازاءَ بعضِ مظاهر الطبيعة قَوْلُه :

وجَيْشٍ يُثنِّي كُلَّ طَوْدٍ كَأَنَّهُ
خَرِيقُ رَيَاح واجَهَتْ غُصُناً رَطْبا

فههنا شعورُ رَهْبةٍ إزاء خَرِيقِ الرياح وهِياجِهــا ، وتَأَمُّلَة" دَقِيقَة" لخَفْقِ وُرَيْقَاتِ الأَغْصان الْخُضْرِ الدِّقَاق النواضــر وهي تَرْقُص وتَتَثنى لهُبوبِ الرِّيح صَغِيرَاتٍ جَــذِلات في أطراف الشجراتِ الكبيرات الثابتات للعَصْفِ الشديدِ من حولهن ـ كهذا الطَّوْدِ والجيوشُ تَتَخَلَّلُهُ كلِ صَخْرَةٍ وممرٍّ منه كأنمــا هي غُصن" رطب صَغِير" مهتز •

وبَعْدَ هذا البيت قوله :

كأَنَّ نُجومَ الليــل خافت مُغَــاره
فمدَّت عليهــا من عجاجته حُجُبــا

وأحسِبُ أَنَّ هذه العجاجةَ في الحقيقةِ ما كانت الا حَرِيقَ الرياح

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَفَساً من خبر يوم حليمة الذي زعموا أَنَّ العجاجَ فيه غطَّى ضَوْءَ الشمس حتى بدت النجومُ وقد عَكس أبو الطيب الصورة كما ترى .

وقولـه :

وكانوا يَرُوعونَ المُلوكَ بأن بَدَوْا
وأن نَبَتَتْ في المـاءِ نَبْتَ الغلافق

والشاهد هنا صـورة الغلفق وهو مـا غَلُظ من الطُّحلب الطافِي على الماء .

وان يكن أتساع الصحراءِ بمنزلة بَحْرٍ ممتدٍّ ، فالمدائنُ وزروعُ أهل الريفِ في أطرافه وامراؤهُم وملوكُهم كل ذلك طافٍ كما يطفو الغَلْفَق .

وقولـه :

تعوَّد الا تقضـم الخَيْلُ حَبَّـهُ
إذا الهَامُ لَم تَرْفَعْ جُنُوبَ العَلائق

ولا تَرِدَ الغُدْرانَ الا وماؤُهـا
من الدَّم كالرَّيحَانِ تَحْتَ الشقـائق

وما أَحْسِب أن أبا الطيب جمع بين صُـورةِ الرَّيْحَـانِ تحت الشقائِق البهجةِ الجميلةِ وصُورَةِ الغُـدرانِ على اطرافِ سَـطْحِ مائها الدَّمُ ، الا لمشاهدَتِه مَنْظراً جمع بينهمـا انطبعت صُـورَتهُ في ذِهْنه ـ وَحْشيَّةُ الحَرْب ، ووَدَاعةُ الطبيعة ، فتأمَّلْ .

وقولـــه :

قـــد سوّدت شَجَرَ الجبالِ شعورُهم
فكأنّ فيه مُسِفَّـــةَ الغِرْبَـــان

وجرى على الوَرقِ النَّجيـــعُ القاني
فكأنه النَّارَنْجُ فـــي الأَغْصـــان

وملاحظة المناظر الطبيعية ـ مَنْظرِ الغربان مُسِـــفَّةً على الشـــجرِ مُسْوَدَّةٍ بين خُضـــرةِ أغصانه وغُيْرَتِهـــا ومَنْظَرُ النارنجِ على الأغصان ـ بَيِّنَةٌ ههنا ـ ولا أرى إلا أنّ أبا الطيب قـــد نظر إلى قول أبي تمام :

ما رَبْعُ ميَّةَ معموراً يُطيفُ بـــه
غَيْلانُ أَبْهى رُباً من رَبْعِها الخَرِب

ولا الخُدودُ وإن أدْمِينَ من خَجَلٍ
أشْهى إلى ناظِرٍ من خَدِّها التَّرب

سَمَاجةٌ غنِيَتْ منـــا العُيونُ بها
عن كُلِّ حُسْنٍ بدا أو مَنْظَرٍ عجب

والذي حسَّنها الانتصار ؛ ولقوّةِ شعور أبي الطيب به لم يَحْتَجْ الى أن يُفَسِّرهَ كما صَنَع أبو تمام .

وقولـــه :

تلاكَ وبَعضُ الغَيْثِ يتْبَعُ بَعْضَه
من الشامِ يَتْلُو الحاذِقَ المُتَعَلِّمُ

والشاهد هنا منظر تتابع السحاب ، صغاره يتلون كباره وكبراهن المبرقة من بعد كأنما تجتذبهن اجتذابا .

وقولــه :

لمـا قفلت من السـواحل نحونا
قفلت إليهـا وحشة من عنـدنا

أرج الطريق فما مررت بموضع
إلا أقام بـه الشـذا مستوطنـا

لو تعقل الشـجر التي قابلتهـا
مدت محيية إليـك الأغصنـا

هذا الأرج وهذه الأشجار ذات الغصون أتراها مجرد ألفاظ أريد بها معنى المبالغة أم أوعية شعور نابض ذي إيحاء قوي بتجربة أحسها الشاعر وانطبعت في نفسه كل انطباع ؟

وقولــه :

منذ احتبيت بانطاكية اعتـدلت
حتى كأن ذوي الأوتار في هـدن

ومذ مررت على أطوادها قرعت
من السجود فلا نبت على القنن

فههنا تجربة منظر رؤس الجبال المرتفعات الصلع بعـد أن يكون الشاعر قد اجتاز مروجاً وغابات ـ شـاهد ذلك قولـه : فلا نبت على القنن .

وقولـــه :

أنا صَخْرَةُ الوادِي إذا ما زُوحِمَتْ
واذا نطقـــت فإنَّنـــي الجـــوزاء

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاءِ علوُّ المنطق وما أرى إلا انه اراد أن منطقه باهِرٌ ذو أَلق كما تتألق أنجم الجوزاء الثـلاثُ اللاتي هُنَّ لها كالنطاق ومكانهن في الليلة الظلماء واضحٌ ايما وضوح .

وقولـــه :

وإن يَكُ سَيْفَ دولةِ غَيْرِ قيس
فمنـــه جُـلودُ قَيْسٍ والثيـــاب

وتَحْتَ رَبابه نَبَتُـــوا وأَثُّـــوا
وفـــي أيَّامـــه كَثُـــروا وطـــابوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد . وقد كان أبو الطيب بَدَوِيّاً مثل هؤلاءِ الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديدَ العطفِ عليهم والمَيْل الى جانبهم ، وفي بادينهم بادية الشام ، كان قضَى شَطْراً صالحا من أيام شبـــابه .

وقولـــه :

اذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهَـــا ببطونهـــا
كمـــا تَتَمشَّى فـــي الصعيدِ الأراقم

والبيت في صفة الخيل وتَأَمُّل انسيابِ الثعابين ببطونهـــا ههنا جلي كما ترى .

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال" واسع وأمثلته مما منه شففاف" بتجارب سفره واحساسه بجمال الطبيعة كثير ، فنكتفي بهذا القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه إن شاء الله ، ما هو من معدنه وسنخه • هذا والضرب الثاني مما يقع من تجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي يتناولها كأنه جزء" منها أو مستطرد" به عنها أو متمم لمعناها أو من هذا المجرى •

مثلا قوله :

فأضحت كأن السور من فوق بدئه
إلى الأرض قد شق الكواكب والشهبا

تصد الرياح الهوج عنها مهابة
وتفزع منها الطير أن تلقط الحبا

وتردي الجياد الجرد فوق جبالها
وقد ندف الصنبر في طرقها العطبا

تأمل قوله « تردي الجياد الجرد » وما فيها من محاكاة وقع حوافرها والصنبر بكسر الصاد وتشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو البرد الشديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن •

والغرض هنا وصف قلعة مرعش • وموضوع الطبيعة المذكور اثناء هذا الغرض وفيه تجربة أبي الطيب مضمنة ، وصف هذه الرياح الهوج والطير التي أفزعها زفيف الريح • وكأن أبا الطيب قد نظر الى علقمة حيث قال :

كأنهُمْ صَابَتْ عليهـــم سَـــحَابَةٌ
صـــواعِقُهـــا لطَيْرِهـــن دَبِيبُ

أي عَجَزْنَ عن الطَّيران لفزَعِهن .

ثم تَبِعَ هُبوبَ الريح نُزولُ الثَّلْجِ والبَرَدِ وتناثر قُطْنِ الصَقِيع وقد خَرَج أبو الطَّيب وصَحْبُه يَرُوضون جيادا جُرْداً ـ ولأبي الطيب ارْتياع نَفْسٍ وبَهْجَتُها عِنْدَ الثلج . ولا يَخْلُو قَوْله : (وقـــد نَدَف الصِّنَّبْرُ في طُرْقها العُطْبا) من نظر الى قول الفرزدق :

وأقبَلَ مَوْضُوع الصـــقيع كأنَّـــه
على سَرَواتِ الشُوق قُطْنٌ منَدَّف

وقول أبي الطيب بَعْدُ فيه الحركة ـ تَناثُر الصقيـــع كالقُطْن ، وزَفِيفُ الريحِ وعَصْفها .

وكأن قوله : (الجِياد الجرد) فيه نوعٌ من إيحـــاءٍ بخُلُوِّ المكانِ من خُضْرَةِ النبات الا الشَّجرَ العاريَ السليبَ .

ومما يَدُلُّكَ على قوةِ انْطباعِ صُورَةِ الثَّلْج وإحْساسِ البَرْدِ عند ابى الطيب قوله :

حتى عَبَرْنَ بأرْسَنَاسَ سَوابِحـــاً
يَنْشُرْنَ فيـــه عمائِمَ الفُرْسَـانِ
يَقمِصْنَ في مِثْل المُدَى من باردٍ
يَذَرُ الفُحولَ وهُنَّ كالخِصْيانِ

يَصِفُ بهذا عُبورَ خَيْلِ سيف الدولة ـ في أوائل الربيع يَغْزُون أرْضَ العدو .

وقوله في صفة رياضة مهره (الطّخرور) زمنَ الشتاء يلتمس له كلأً وقد غطّت الأرضَ الثلوجُ :

ما للمروجِ الخضرِ والحدائقِ
يشكو خلاها كثرةَ العوائقِ

أقامَ فيها الثلجُ كالمرافقِ
يعقِدُ فوقَ السنِّ ريقَ الباصقِ

وهذا البيت منبىء بتجربة خاصّةٍ قوية . وما أشكُّ أن أبا العلاءِ أخذ منه حيثُ قال يصف بردَ بغداد :

والماءُ وردي لا تزالُ نواجذي
في منتضاهُ سوابحاً كأوازمِ

أحسبه أخذ قوله (سوابحاً) من صفة أبى الطيب الخيلَ وهنّ يسبحن كالذي مرّ من قوله :

حتّى عبرنَ بأرسناسَ سوابحاً

وقوله (كأوازمِ) - أخذه من ههنا - (يعقد فوقَ السنِّ ريقَ الباصق) .

وزادَ قوله « منتضاه » يتضمّنُ ذلك تشبيهاً لحدِّ البرد بحدّ السيف ، وذلك قول أبى الطيب (في مثلِ المدى) .

ونعود الى أبيات أبى الطيب :

أقامَ فيها الثلجُ كالمرافقِ
يعقِدُ فوقَ السنِّ ريقَ الباصقِ

ثم مَضى لاعادَ من مُفارِق
بقائدٍ من ذَوْبه وسائِقِ

والتشبيه مأخوذٌ من معنى ما هو في مَعْرِض وَصْفه من الرِّياضَة والركض أَعنى تشبيهه الذَّوْبَ بالقائِد والسائق • ويبدو لي أنه عَنَى بالقائِد ما يتقاطر من الثّلْج حين يكون عالِقاً بالصخور أو رُؤوس الدُّور وبالسائقِ ما يَنْشَقُ منه من وراءٍ فيَنْحَدِرُ له سائرهُ •

كأنّما الطُّخْرورُ باغِي آبقِ يأكُلُ من نَبْتٍ قصيرٍ لاصق
كقَشْرِكَ الحِبْرَ عن المَهارِق

المهارق الاوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منتزع من صناعة أبى الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مثل هذا من إحْسَانِه أبو منصور في فصله البارع الذي عَقَده له في يتيمة الدهر •

وقلّ مكانٌ مرَّ به أبو الطيب ولَمْ يُسَجّلْ انطباعاً عن جَوِّه وطبيعة أرضه • من ذلك مثلا قوله يصف لبنان في مَعْرِض مدحه أبا على هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

بيني وبَيْنَ أبى عليٍّ مثله شُمُّ الجبالِ ومثلُهن رَجَاءُ
وعقابُ لُبْنانٍ وَكَيْفَ بقَطْعها وهُوَ الشّتاء وصَيْفُهنَّ شتاء
لَبِسَ الثّلوجُ بها عليَّ مسالكي فكأنها ببياضها سوداء

وتشبيهُ شم الجبال بأبى عَلِيٍّ كأنَّ فيه ايحاء بتشبيههن برجال ذوى هيبة وعمائم ؛ وتشبيه الجبل بالشيخ معروف في الشعر ؛ ومنه (وهو كالأَصْلِ) قَوْلُ امرىء القيس :

كأن ثَبِيراً في عرانينِ وَبْلِه كبيرُ أُناسٍ في بَجادٍ مُزَمّلِ

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وَحْيَ صورته ذات الرجال العَدَدِ وقد شبَّه رجاءَهُ الضَّخْمَ البَعِيدَ بجبالِ لبنانَ ذاتِ العلوِّ يكسوها الثلجُ الأبيضُ • ثم تذكَّر أن طريقَهُ إلى تحقيق هذا الرجاءِ إنَّما يكون عليهن وهُنَّ عَقَبات :

لَبِسَ الثلوجُ بهـا على مَسـالِكي
فكأنَّهـا ببيـاضِها سَـوْدَاءُ

ومثلا قوله : يصف بادية الشام في الصيف :

تَوهَّمَهـا الاعرابُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ
تُذَكِّرُهُ البيـداءُ ظِلَّ السُّرادِقِ

فذكَّرتهم بالمـاء سـاعةَ غَبَّـرت
سَمَاوةُ كَلْبٍ في أُنوفِ الحَزائق

والشاهد هنا صورةُ الغبارِ وهو يُصيبُ مع الحرِّ أُنوفَ الجموعِ المرتحلين ـ وأحسِبُه لم يَخْلُ ههنا من النَّظرِ الى أبى تمام في قوله :

من لَمْ يُقَدْ فَيطيرَ في خَيْشُومِه
رَهَجُ الخَمِيسِ فلن يَقُودَ خميسا

ثم انصرف أبو الطيب بعد الى شيءٍ من ذكر صفات الصحراء :

وكانُوا يَرُوعُونَ الملوكَ بأن بَـدَوْا
وأن نبتَتْ في الماءِ نَبْتَ الغَلافِقِ

فهاجُوك أَهْدَى في الفَلاَ من نُجومه
وأبْدَى بيوتاً مـن أداحي النقـانق

وأصْبَرَ عن أمْواهِهِ ضِبَابه
وآلفَ مِنْهَا مُقْلَةً للودائق

وبعض هذه الصفات التي خلعها على سيف الدولة من إلْف شدّةِ الحر والهجير والف المُقْلة لوَهَجِه انما كانت صفته هو وإلى ذلك أشار في قوله :

ذراني والفلاةَ بلا دَليلٍ
ووجهي والهجيرَ بلا لثام
فإنّي أستريحُ بذي وهذا
وأتعبُ بالإناخَةِ والمُقام
عَيونُ رَواحلي إنْ حِرْتُ عَيْني
وكلُّ بُغَام رَازِحَةٍ بُغَامى
فقدْ أَرِدُ المياهَ بِغَيرِ هَادٍ
سوى عَدِّي لها بَرْقَ الغمام
ولا أمْسِي لأهْلِ البُخْلِ ضَيْفاً
ولَيْسَ قِرىً سِوَى مُخِّ النَّعام

وقد كان النعامُ على ذلك الزمانِ كثيراً في فَلَوات بلادِ العرب الى مِصْرَ فيُوشِكُ الآنَ أن يَكُونَ قد انحازَ كلّه الى أعماقِ بلادِ المِنْطَقَةِ الحارّةِ ذاتِ المطر ـ وقد جاء ذِكْرهُ في شِعْرِ ابى الطيب كثيرا .

من ذلك قَوْله وقد توسّط أرض العَرَبِ في فِراره من كافورٍ الى الكوفة :

بُسَيْطَةُ مَهْلاً سُقيت القِطارا
تَرَكْت عُيونَ عَبيدي حَيارى

فظنّوا النعامَ عليك النَّخيلَ
وظنّوا الصِّوارَ عليك المَنارا

فأمْسَكَ صَحْبي بأكوارهم
وقد قَصَدَ الضِّحْكُ فيهم وجارا

وقد أعادَ الاشارة الى هذا الحادث الصغير الذي أضحكه هو واصحابه في وَسْطِ أحاضَةِ المهالكِ بهم ، في مقصورته (الاكُل ماشيةِ الخَيْزلى) فقال :

وقُلْنا لَها أيْنَ أرْضُ العراقِ فقالت ونَحْنُ بتُرْبانَ هـا
رَوامِي الكفافِ وكِبْدَ الوهادِ وجارَ البُوَيْرَةِ وادي الغضى
وجابَتْ بُسَيطةَ جَوْبَ الرِّداءِ بَيْنَ النَّعام وبَيْنَ المها

وذكرُ النعام والمَها هنا أشْعَرُ من ذِكْره في الابيات الرّائية التي تقدمت لما فيه من صُورَةِ شَقِّ الصحراء قِسْمَين . فيه حيوانُها مُجْفلات، النَّعامُ من ههنا ، والمها من ههنا .

وسَرْدُ المواضع أُسلوبٌ قديمٌ الا أنّ أبا الطيب أطاله وحَرَصَ على إيصالنا منْ تيهِ مِصْرَ الى أرض العراقِ مَوْضِعاً مَوْضِعاً ، وأحسبُ أن مُدّاحَ الرسولِ صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم حينَ جَعَلوا من طريقتهم ذِكْرَ مَراحِلِ الطَّريقِ حتى يَبْلُغوا حَرَمَهُ الشَّريفَ والحَرَمَ المكيَّ ، قلّدوه هُوَ أوّلاً مع عِلْمِهم بدُونِ شكٍّ

بمذهب القدماء ، إذ قلّ منهم من لم يكن قد قرأ المعلقات وعرف منها أمثال :

فرياض القطا فأودية الشربب فالشعبتان فالإيلاء

وفي همزية البوصيري سرد حسن للمواضع بين مصر والحرمين فقال في آخره :

هذه عدة المنازل لا ما عدّ فيه السماك والعوّاء
فكأني بها أرحّل من مكة شمساً سماؤها البيداء

وقد انتقلت هذه الطريقة من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في الفصيح الى مدحه في اللسان العامي ، وافتن في ذلك شعراؤه أيما افتنان وهذا باب تفصيله يطول وهو بعد خارج عما نحن بصدده الا قليلاً .

هذا ، والقصيدة المقصورة التي استشهدنا بأبيات منها ههنا عدّ فيها أبو الطيب نحواً من عشرين موضعا ، وصوّر فيها حركة انتقاله في الصحراء ممزوجاً ذلك بما كان يساور نفسه من قلق وغضب وروح تحدّ .

وافتن فجعل مطلع الصباح مؤذناً بدنو نهاية فراره وذلك قوله :

ولاح لها صوَر والصباح ولاح الشغور لها والضحى

وصورٍ والشغور موضعان بالعراق . وإذ بلغهما وهما من معالم النجاة واقتراب المأمن ، التفت الى ما كان قد تجشمه من نيل الجد والخوف قبلهما .

فيالك لَيْــلاً عــلى أعْكُش ٍ أحمَّ البلاد ِ خَفى الصُّــوَى
ورَدْنَا الرُهَيْمَةَ في جَوْزه وباقيه ِ أكْثرُ مِمَّـــا مَضى

ليست صفة الليل هنا مَذْهَبَ تقليد ٍ شــعري ولكنَّهــا تَجْرِبة تُحِس ُ صِدْق إحْسَاسِها ذى الطَّابع الفَرْدِي من أول وَهْلَة ٍ ولكنَّا لانقبل ُ عليه بالتأمل الناقد ِ العميق الاعجاب لِمَــا تعودنَاه ُ من عَــدم الإقبال على أَوْصاف ِ الليل ِ والنُّجُوم ِ والقمر مِمَّا يَقَعُ كثيراً بلا طابع مُشاهدة ٍ اصيلة التجربة عند أَصناف الشعراء • تأمل قوله :

وأسْري في ظلام ِ اللَّيل ِ وَحْدي كأني مِنْــهُ في قَمر ٍ مُنيــر

وقولـــه :

كأنَّ بنـــات نَعش ٍ فــي دُجـــاها
خرائـــدُ ســــافرات فـــي حـــداد ِ

وقولـــه :

ما بَالُ هذِي النُّجــوم ِ حـــائرةً
كأنَّهـــا الْعُمْىُ مالَهـــا قَائِـــدْ

وقولـــه :

كالبَدْر ِ من حَيْثُ التفتَّ رأيتَــهُ
يُهْدِي الى عَيْنَيْكَ نُورًا ثاقبـــا
كالشَّمْس ِ في كَبدِ السماءِ وضوؤهـا
يَغْشىَ البـــلادَ مشــــارقا ومغاربا

وقولـــه :

كأنَّهـــا في نهارِهـــا قَمَـــر ٌ حفَّ به من جنانِهـــا ظُلَـــم ُ

هذا . وفي شعر أبي الطيب انطباعات" قوية دقيقة" مختصرة" عن البلاد التي شاهدها كالذي مرَّ من صفةِ غبارِ سماوةِ كَلْب وجبال لُبْنانَ وثلْجِ الشام وصَلَعِ رؤسِ جباله وكقوله يَذْكُرُ ظهورَ الربيع عند عيد النيروز في بلاد الفرس .

ما لَبِسْنا فيه الأكاليلَ حتَّى لبِسَتْها تِلاعُهُ ونجادُه

وكقوله في النيل :

وسَمَتْ به البيداءَ حتَّى تغمّرت
من النيلِ واستذرت بظِلِّ المُقطم

وفي قوله (تغمّرت) اشعار بكثرة ماء النيل وجسامته وفي قوله (استذرت بظل المقطم) إشعار بخصب مصر وخفض العيش الذي لقيه فيها وقد صرح بذكر هذا الخفض ، وجعله سبب سَقَمِه في القصيدة الميمية الرائعة التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً فليس تزورُ إلاَّ في الظلام
بذلتُ لها المَطارفَ والحشايا فعافَتْها وباتَتْ في عظامي
يَضيقُ الجِلْدُ عن نَفَسي وعنها فتوسِعُهُ بأنْواعِ السّقام
اذا ما فارقَتْني غسَّلَتْني كأنا عاكِفانِ على حرام
كأنَّ الصُّبْحَ يطرُدُها فتَجْري مدامِعُها بأرْبَعةٍ سِجام
أراقبُ وَقْتَها من غيرِ شَوْقٍ مراقبةَ المشوق المستهام
ويَصْدُقُ وَعْدُها والصّدقُ شر اذا ألقاكَ في الكُرَبِ العظام

وهنا تأمل دقيق . وليس وصف الحمى بأبعد ، في باب الطبيعة عن وصف الأسدِ والنعامِ ولا سيَّما ونَحْنُ الآن نَعْلَمُ أنَّ سببها حَيوان"

صَغِير" لا تراه العين ، وإنّما تحِس النفوس أثره ، فهذا هو الذي ذَكَره أبو الطيب رحمه الله • ومن جَيِّد ما يَجِيء به أبو الطيب مختصرا لملاحظاته وانطباعات تجارب الطبيعة في نَفْسِه ما يَقَع في باب النسيب وَبَعض أغراضه الأخريات من صِفات الحَيا وذكر النسائم ، مثل قوله :

رعى اللهُ عِيساً فارقَتْنا وفَوْقَها
مها كلُّها يُولَى بجفْنَيْهِ خدُّه

بوادٍ به ما بِالقُلوبِ كأنّه
وقد رَحَلُوا جِيد" تَناثَر عِقْدُه

إذا سارَت الأَحْداجُ فوق نَباتِه
تفاوَحَ مِسْكُ الغانياتِ ورَنْدُه

والشاهد هنا هذا الأرَجُ العَطِرُ المتفاوح من الرَنْدِ وتُخالِطُ نسيمَه الرقيقَ عُطورُ الغانياتِ وكأنّ أبا الطيب ههنا لم يَخْلُ من أخْذٍ من علقمة حيث قال ، من ميميته الفريدة :

يَحْمِلْنَ أَتْرُجّةً نَضْخُ العَبير بها
كأنّ تطيابها في الأَنْفِ مَشْمُومُ

وقال أبو الطيب :ـ

فَدَيْناكَ من رَبْعٍ وان زدتنا كَرْبا
فانّك كُنْتَ الشّرق للشمس والغربا

وكَيْفَ عَرَفْنا رَسْمَ من لم يَدَعْ لنا
فؤاداً لِعِرفانِ الرسوم ولا لُبّا

جعل أبو الطيب ههنا ربعه رَمْزا للكون كُلّه وللطبيعة كلها ومحبوبته حيث كانت مقيمة به تطلع وتغيب :

نَزَلْنا عن الأكْوارِ نَمشْي كرامَةً
لِمَنْ بانَ عَنْهُ ان نُلِمَّ به ركبا

والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرىء القيس :

قفا نَبْكِ من ذِكْرى حَبيبٍ ومنزل

وقولـــه :

وقَوفاً بهـا صَحْبِي على مطيهم

وقول أبي الطيب (نَزَلْنا عن الأكوار نمشي) فيه إفْصاحٌ بتَجربةٍ فردية سوى المُتَواضَعِ عليه في نعت الأطلال •

ونَحْنُ لا نملك بعد الا أن نَتَرجَّل مع الشاعرِ ونمشي وحَوْلنا كَوْنُ الطبيعةِ والذِّكْرى العريضة ولا يَخْلو مِثْل هذا المشيِ مع ما يُصاحِبـــه من تأمُّلٍ حزينٍ وادّكار من نَوْعٍ نشـــوةٍ وارتياحِ فؤادٍ وواقعيةٍ حيَّة •

واحسِبُ أن منَشأ هذه الواقعيةِ من كَوْن أبي الطيب قد كان مَعَهُ صَحْبٌ يشارِكُونه النُّزول والمَشْيَ ، لا واقفين عليه مَطيَّهم كما عنـد امرىء القيس وطرفة ، ولا مستوقِفَهم هُـــوَ أو داعِيَهم الى أن يعوجوا ويعرجوا كما هو المذهب في النَّسيب •

ومَصْدَرُ النشوة والارتياح هذا الغَيْثُ الذي حسَّن منظر الأرضِ وطابَ نَسيمُها من بعده على ما أوقعه بمكان الربـــع من تعمية معــــالم ومحو آثار :

تَذُمّ السحابَ الغُرَّ في فعلها به
ونُعْرِضُ عنها كلما طَلَعت عتبا

قوله الغُر فيه فَرْحة بالسَّحاب وحُب له .

ولا غَرْوَ فبالبادية نشأَ وكحُبِّ أهلها الغُيوثَ وبُروقَها أحبَّه ، وهو القائل :

فَقد أَرِدُ المياهَ بغير هادٍ سوى عَدّي لها بَرْقَ الغمام

وهو هنا يُخاطب السحاب مخاطَبَةَ الصَّدِيق الذي نسه بودِّه العَهْدُ الطويل يَذُمّه للذي فَعَل بالربَّع ويعاتِبه ويعرِضُ عنه وهو - أي السحابُ - عَلَيْهِ مُقْبِلٌ بلمعه الحُرّ الأغرّ الجميل .

وهل تَنَكَّر هُوَ للسَّحاب بَعْدَ هذا الودّ كما هو شأْنُ رُفقاء هَذِه الدنْيا في التنكر ؟

ومن صَحِبَ الدنيا طويلا تَقَلَّبت
على عَيْنِه حتى يرى صِدْقَها كذبا

ثم يَأخُذُ أبو الطيب في المَزْجِ بين حاضرِ ارتياحه للربع والأصيلِ والضُّحَى والنسيمِ وغابِرِ ما كان ، من عَهْدِ مودّةِ الحبيب وما يُثيرُه ذلك في نَفْسِه من طَرَبٍ ، وما تَعَوّد به خِفّةُ ذلك الطرب (وقد أَخذَت الآنَ تَتقدَّمُ به السِّن) الى سالِف عَصْرِ صباه أيامَ كان غلاماً يتوثّبُ ويَثِبُ وشاباً يُقْدِم إقْدامَ الأَتِيّ ، أي السَّيْل أو كما قال :

وأقدَمْتُ إقْدامَ الأَتِيّ كأنَّ لي
سوى مُهْجَتي أو كان لي عِنْدها وِتْر

وهذا كما ترى من أَجْوَد ما يقال من صِفَةِ حماسة الشباب وذِكْر السيل فيه ما قدّمنا ذِكْرَه من صِفَةِ الطبيعة ضِمْنَ التشبيه .

وكَيْفَ التذاذي بالاصائلِ والضُّحَى
اذا لم يَعُدْ ذاكَ النسيمُ الذي هَبَّا
ذكرتُ به وَصْلاً كأن لم أفُزْ بِــــه
وعَيْشاً كأني كُنْتُ أقْطَعُه وثْبَــا

البيت الاول فيه إعْلامُنا انه التذ هبُوب النسيم وأصائله وضحاه والبيت الثاني فيه الصورةُ التي زعمنا انه انتزعَها من تَذَكُّر أيام صباه .

وفتانةَ الْعَيْنَيْنِ قتّــالةَ الهــوى
اذا نَفَحتْ شَيْخاً روائحُها شَبّــا
لها بَشَرُ الدرِّ الذي قُلِّــدَتْ بِه
ولم أَرَ بَدْراً قبلها قلّد الشُّهْبَــا

وكأن عهد أبي الطيب بهذه الفاتنة غير بعيد ، وكأن قوله اذا نفحت شيخا روائحها شبا ـ وهذا شبيه بقوله :

تَفَاوح مِسْك الغانياتِ ورنده

وقولــــه :ـ

ولَمْ أر بَدراً قَبْلها قلّد الشهبا

فيه مَعْنىً ما ذكرناه من قوة احساسه بضَوْءِ البدر وألَقِ النُّجومِ وانعكاس روح هذا المعنى في تَعْبيره ـ وصُورَةُ الحسناءِ ههنا لايَخْفَى أنها ذَاتُ ألق وهّاج انتزعه الشاعر من ضــوء الشمس والبدر والدراري والشُّهب .

وتأمّل قوله :

ومَن يَصْحَبِ اسْمَ ابن العميدِ مُحمّد
يَسِرْ بين أنياب الأساودِ والأُسْدِ

يَمُرُّ من السّمِّ الوَحِيِّ بعاجزٍ
ويَعْبُر من أفواهِهِنَّ على دُرْدِ

كفانَا الرَّبيعُ العِيسَ من بركاتِهِ
فجاءَتْهُ لم تَسْمَعْ حداءً سوى الرَّعد

اذا ما استَحْيَنَ الماءَ يَعْرِضُ نَفْسَه
كَرَعْنَ بِسبْتٍ في اناءٍ من الورد

وهنا يشعرنا بأن سفره كان نهارا في ظلّ الغمام وصوت الرّعْدِ البعيدُ غير المرعب لبعده ، كأنّما هو حادٍ يسوق ابله . وقد نَشِطَت لاعتدالِ الهواء ولَطْفِه وشُمولِ النعمة والرخاءِ ، حتى انهن قد داخَلَهنَّ الحياء لما رأَيْنَ كثرة الماء ، ووجدن انفسهن مُترفاتٍ قد رقَّت شفاهُهُنَّ حتى صِرْنَ كالسِّبْتِ وهو جلد الماعز الرَّقيق المدْبوغ وجَعَلْنَ يكرعن بها من غدرانٍ يَحُفُّ بهن الزهَرُ ، كأنهنَّ يَكْرَعْن من آنيةٍ فضّةٍ تزين حَواشِيَها الورودُ •

كأنّا ارادَتْ شُكْرَنا الأَرْضُ عِنْدَه
فلم يُخْلِنا جَوٌّ هَبَطْنَاه من رِفْدِ

وعنى بالرِّفْدِ هنا الجمال والارج الحسن • وشُكْرُ الارض نَفَثُحُها بالخضرة والنّوار ـ كما قال ابن الرومي :ـ

شَكَرت نِعْمَةَ الوليّ على الوَسْمِيّ
ثم العِهَادِ بعد العهاد

وقد نعلم ان أبا الطيب كان من رُواةِ شِعْرِهِ وما خلا ههنا من إشارة خفيّةٍ الى ما قد قال .

لنا مَذْهَبُ العُبَّاد في تَرْكِ غيره
وإتْيانِه نَبْغِي الرغائِبَ بالزهد
رجَوْنا الذي يَرْجُونَ في كل جَنَّة
بأرجان حتى ما يَئِسْنا من الخُلْد
تَعَرَّضُ للزوار أعناقُ خَيْلِه
تَعَرُّضَ وَحْشٍ خائفاتٍ من الطَّرْد
وتَلْقَى نواصِيها المنايَا مشيحَةً
وُرودَ قَطاً صُمٍّ تَشايَحْنَ في وِرد

قالوا جعل القطا صُمًّا لاهتمامها بالطيران وانشغالِها بِه عن كُلّ شيء سواه ومن تَأَمَّل هذه الأبْياتَ الداليّةَ ما صَرَّحَ فيه أبو الطيب مِنها بِذِكْرِ الطبيعة من رَبيعٍ وغَيْثٍ وزَهْرٍ وما لم يُصَرِّحْ ولكن جاءَ بِه في مِعْرَاضِ المدح يَجِدْ أنّه ضَمَّنها تَجْرِبة سَفَرِه إلى ابن العميد كُلها ــ صَوْتَ الأُسود ، ودَبِيبَ الحيَّاتِ ، وصُوَرَ الوحش النافرات وَضُروبَ القَطا والطَّير الوارداتِ المياه ... ثم نُفُور نفسِه هُو شَيْئاً من ابن العميد . وقد ذكروا أنّ ابن العميد عَابَ عليه قَصيدته الرائية .

بادٍ هواكَ صَبَرتَ أم لم تصبرا

فإن صحَّ هذا فهوَ لا ريب من أسباب النفور • وقد كان ابنُ العميد من أكابرِ الكتاب في زمانه ـ ولا يَخْلو مذهبه من كُلْفةٍ وَظلٌّ ثقيلٍ أشبه شيء مع بعد القياس بسوجة الشعر الحديث التي تجْتَاحُنا الآن •

هذا واحسب أن ابا العلاء قد أخذ من أبياتِ أبى الطيب الدالية هذه في وصفه سَفَره الى العراق حيث قال :ـ

وبتُ بُمُسْتَنٍّ اليرابيع راقِداً
يُطَوِّفْنَ حَوْلِي من فرادى ومن شَفْع

فهذا كأنه مُولَّد من قول ابى الطيب يسير بين أنيابِ الأساودِ والأسْد • وحيث ذكر الابل فقال :ـ

لقَد زَارني طَيْفُ الخيالِ فهاجنى
فهل زَار هذِي الإبْلَ طَيْفُ خيال

لعل كراها قد أَراها جِذَابها
ذَوائِبَ طَلْحٍ بالعقيقِ وضَال

فهذا كأنه تَفْريعٌ من قول أبى الطيب « استَحْيَنَ الماء يعرض نفسه » وقوله « كَرعَنْ بسِبْتٍ في إناءٍ من الورد » • ومما يُصَحِّح ما نزعمه هُنا ويُؤَكِّده قَوْلُ أبى العلاء :

وأَعجبها جَذْبُ العضاهِ أُنوفها
بمِثْلِ إبار حُدِّدَتْ ونِصَال

فجعل الانف مكانَ المشافر وجَعَل العضاهَ وشوكها مَكانَ الورد وفي الورد شَوْكٌ إلا انه رَقيقٌ لطيف غَيْرُ بَدوِيّ خَشِنٍ كشَوْكِ السيال والطّلح وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة ، وإن بدا كأنه غير داخل فيها ، ما كان أبو الطيب يجيء به في شعره من صور الحركة والمناظر التي تبدو معها ــ مثل قوله :ــ

وتضحي الحصون المشمخرات في الذرا
وخيلك في أعناقهن قلائد

فهذا منظر ذو حركة ملتبس فيه الإنسان وعمله بالطبيعة كل التباس ، ونحو منه قوله الذي مر آنفا :

حتى عبرن بأرسناس سوابحا
ينشرن فيه عمائم الفرسان

فكأنهن سفن لهن قلوع كما ترى .

وقوله :

كلما رحبت بنا الروض قلنا
حلب قصدنا وأنت السبيل

فقوله رحبت منبيء بحركة لما فيه من قدوم وترحيب . ثم فيه معنى اتساع الروض وبهجته وانطباع ذلك في فؤاد الشاعر مع سرعة تجاوزه له :

وقوله :ــ

فلما تجلى من دلوك وصنجة
علت كل طود راية ورعيل

ولك ان تتخيل هول هذا المنظر وروعته .

على طُرُقٍ فيها على الطُرْقِ رِفْعَـــةٌ
وفي ذِكْرِهـــا عند الأَنيسِ خُمُول

ورُعْنَ بنـــا قَلْبَ الفُراتِ كأنَّما
تَخِــرُّ عليــه بالرِّجـــالِ سُــيُول

يُطارِدُ فيـــهِ مَوْجَهُ كُلُّ سابِحٍ
سَواءٌ عَليــــهِ غَمْرَةٌ ومسيـــل

تَراهُ كـــأنَّ المـــاءَ مَرَّ بِجِسْمِـــهِ
وأَقْبَـــلَ رَأْسٌ وَحْدَهُ وتليـــل

منظر الجبال على رؤوسهن الراياتُ والخيلُ مَدَّ الأُفُقِ • ثم صُورة الخيول والفُرْسانِ المندفعةِ الى نَهَرِ الفُراتِ أَمْثالَ السيُول •

والتشبيهُ نَفْسُه يتضمن تَجْرِبَةً من الشَّاعِر لمنظر السُّيولِ وهي تَخِرُّ في نهر كبيرٍ ثم بَعْدَ دِفاعِ اوائل ملتقاه بِه تَمْتَزِجُ أمواهها وتيَّارُها بأَمْواهِه وتياره ومثلُهن هؤلاءِ الفرسانُ وخَيْلُهم منـــدفعين حتى إذا صاروا الى الماءِ تَفَرَّقوا فيه يُدافِعُون أَمْواجَه وتُدافِعهم • وقد غَلَبَ اتساعُ النَّهَرِ على مَنْظرِ قُوَّةِ انحدارهم العظيمة من قَبْلُ • ثم صارُوا من النهر جزءا خيولهم فيه سابحات ؛ كأن اجسامهن قد اقتطعها الماء فذهب بها ولم يَبْقَ من كلِّ فرس الا رأْسُـــه وعنقه •••• ••• طافياً بهما على الموج •••••• كأنَّهُ من افراس البَحْرِ التي كُنَّا حتى زمانٍ قريب نرى صُوَرهن متفرقاتٍ هكذا على عَرَضِ النيل • هذه الصورة نادِرَةٌ مذهلةٌ ذات انطباعٍ نفسيٍّ دقيق •

وقد قال ابن الاثير في باب موازنته بين أبي الطيب والطائيين :ـ

« ولا شك أنه كان يَشْهدُ الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيَصِفُ لسانُه ما أدىّ اليه عيانه » ••••• ولينه قال : وجَنانُه فان رؤيةَ القَلْبِ أعم وادق من رُؤْية البَصر ولذلك قال تعالى ، جل من قائل : « فإنَّها لا تعمى الأَبْصار ولكن تَعْمىَ القلوبُ التي في الصدور » وقال سبحانه وتعالى : « إن في ذلك لذكرى لِمَنْ كان له قَلْبٌ أو ألقى السَّمْعَ وهو شهيد » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤية بصره بصيرة ـ ولم تكن الجيوش في زمانه تحارِبُ من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابى الطيب ينعت حركتها عظيما •••• وما أَحْسِب مصدرَ ذلك الا أَنه كان يحب الهواء الطَّلْقَ مع حركة المجال الرحيب ••• فالذي رأينا من صُورة الخيلِ قلائِدَ حَوْل ذُرَا الحصُوَنِ ومن صورهنّ وهنّ يَثْنَيَّنَ كلّ طَوْدٍ كأنهنّ رياحٌ حَفَفْنَ بغصنٍ رَطْب وإذْ هُنّ يَعْبرن أَرْسناس ويَنْشُرن فيه العمائم وإذْ هُنّ يَعْلُون الهضاب وعَليهِنّ الرايات واذ هُنّ في الفرات كلّ مِنْهنّ مقبل •••••••

« رَأْس وَحْدَه وتَلِيل » •

كلُ هذه صُوَرٌ من الطبيعة الطلقة امتزجت بها حركَةُ الشاعر والمشاهد الرائعة التي مَلَكت عَليه فؤاده وبصره •••••••••

تأمل قوله يَصِفُ جيوش سيف الدولة وخيله :

تُبارِى نُجَوم القَذْفِ في كُلّ لَيْلَةٍ
نجوم لـه مِنْهُنّ ورد وأَدْهم

يَطَأْنَ من الأَبْطال من لا حَمَلْنَه
ومن قِصَدِ المُرّان ما لا يقوم

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرُ بقايا معركة . ولعمري ان أمثالها لنراها مُصوَّرة في رسم الفنانين الاوربيين فنَعْجَبُ بها وما هي لوَ قد تَفَرَّسنا الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلاميّ ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به مسلمون عليهم العمائم جعلهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك الا بضاعتنا ردت إلينا مثلا للفنان الاسباني غُوية صُورة فرسانها مغاربة من قول ابى الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :-

رَغَا فَوْقَهم سَقْبُ السَّماءِ فَداحِضٌ
بشِكَّته لَمْ يُسْتَلبْ وَسَلِيب

كأنَّهم صابَتْ عليهم سَحابَةٌ
صواعقها لطَيْرِهِنَّ دبيب

فلم يَنْجُ الا شَطْبَة بلجامها
والا طِمِرٌّ كالقَناةِ نجيب

والا كَمِيٌّ ذو حفاظٍ كأنَّه
بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّباتِ خضيب

هذا ونعود الى ابيات ابى الطيب :-

يَطَأْنَ من الأبطال من لا حملنه
ومن قِصَدِ المُرّان ما لا يُقَوَّم

فهنَّ مع السيدانِ في البَرِّ عُسَّلٌ
وهن مع النّينانِ في الماءِ عُوَّم

يَطَأْنَ من الأَبْطال من لا حَمَلْنَه
ومن قِصَدِ المُرَّان ما لا يقوم

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرٌ بقايا معركة ، ولعمري ان امثالها لنراها مُصوَّرة في رسم الفنانين الاوربيين فنَعْجَبُ بها وما هي لوَ قد تَفَرَّسنا الا لأن الاصل الذي أخذ منه اسلاميٌ ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به مسلمون عليهم العمائم جعلهم رمزا لعسكر نابليون وما ارى أنه صنع ذلك الا بضاعتنا ردت إلينا مثلا للفنان الاسباني غُوية صُورة فرسانها مغاربة من قول ابى الطيب ونحو قول علقمة في الزمان القديم :ـ

رَغَا فَوقَهم سَقْبُ السَّماءِ فَداحِضٌ
بشِكَّته لَمْ يُستَلب وَسلِيب

كأنَّهم صابَتْ عليهم سَحابَةٌ
صواعقها لطَيْرِهِنَّ دبيب

فلَم يَنْجُ الا شَطْبةٌ بلجامها
والا طِمِرٌّ كالقناةِ نجيب

والا كَمِيٌّ ذو حفاظٍ كأنَّه
بما ابتلَّ من حَدِّ الظُّبَاتِ خضيب

هذا ونعود الى ابيات ابى الطيب :ـ

يَطَأْنَ من الأبطال من لا حملنه
ومن قِصَدِ المُرَّان ما لا يَقُومْ

فهنَّ مع السيدانِ في البَرِّ عُسَّلٌ
وهن مع النِّينانِ في الماءِ عُوَّمُ

وهُنَّ مــع الغزلان في الوادِ كُمَّن"

وهن مــع العِقْبانِ في النِّيقِ حُوَّم

وقد يخيل للمرء اول وهلة ان هذا مَجِيء به على مذهب المبالغة ولله در ابن الأثير اذ فَطَنَ الى أنه ما كان الا وَصْفاً عن مشــاهدة من قلب بصير .

وباب الحروب في شِعْر أبى الطيبِ كَبير" ، ربما خرج بنا مما نحن بصدده ، فنلمع الى ما وقع فيه مُلابسا للطبيعة إلماعا مكتفين بهذا القدر الذي مرَّ ومشيرين الى امثاله مما وصف ابو الطيب ركوب الفُلْك - كالابيات التي استشهدنا بها من عبور أرسناس والفرات وكقوله :

تَلقى بِهم زبَدَ التيــار مُقْرَبــة

على جَحافلهــا من نَضْحِــه رثَمُ

وليست المقربة ههنا بخيل وانما هي سُفُن" واستعار لهــا جحافل أي شِفاهاً كما للخيل شِفاه" والرَّثَمُ بياض في الشفة العليا شَبَّه به بياضَ الموج .

والموج مما يشبه بالخيل كثيرا .

دُهم" فوارِسُهــا رُكاب أَبْطُنِهــا

مكـدودَة" ويقــوَّم لابهــا الألــم

وكما وصف أبو الطيب السفن صنع كذلك أبو العلاء - وذلك قوله :

على نَجــاةٍ من الفِرْصــاد أيدهــا

رَبد القَدُوم بأوصــالٍ واضــلاع

سارت فَزارت بنــا الأَنبار سَالمةً
تُزْجَى وتُدْفَعُ فــي مَوْجٍ ودفاع

وصورة المجذاف والجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهْمٌ فوارسها رُكّـــاب ابطنهـــا
مكــدوده" ويقــوم لابهــا الألـــم

واحساس الاعمى بَحركة القارب وموسيقا لَطْمِ التيار اطرافه أَدق في قول أبي العلاء :

سارَتْ فزارت بنا الأَنبـــار سالمـــة
تُزْجَى وتدفع فــي مَوْجٍ ودفـــاع

وللسابق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم •

ولأبى الطيب في الصيد والكلاب والطرد قِطَعٌ وأراجيز لا تخلو من احساس الطبيعة واحسان وصفها • من ذلك ما تمثلنا به آنفا من قوله :

ما للمروج الخُضْـــرِ والحدائق يَشْكو خلاها كَثْرة العــوائق

ومنهـــا :

ومَنْزلٍ ليس لنـــا بمنزِلِ ولا لغير الغَادِياتِ الهُطّـــل
نَدِي الخُزامى ذَفِرِ القرنفـــل مُحلّلٍ مِلْوَحْشِ لم يُحَلّل
عَنّ لنا فيــــه مراعى مُغْزِل مُحَيَّنِ النفسِ بَعيدِ المَوْئل
اغناه حُسْنُ الجِيدِ عن لُبْس الحلى وعادة" العُرْى عن التفضـــل

ثم اخذ بعد في نعت كَلْبِهِ :

لــــه إذا أدبـــر لَحْظُ المُقبـــل
كأنَّمـــا يَنْظُـــر مـــن ســـجنجل

يُقْعِى جُلُوس البدويّ المصطلى يكاد في الوثب من التفتل

يَجْمَع بين مَتْنه والكلكل

ذِى ذَنَبٍ اجرد غنر اعزل

ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده • وقد عيب عليه قوله :ـ

كانّه من عِلْمه بالمقتل علّم بقراط فصاد الأكحل

فقالوا إن الاكحل ليس بمقتل ـ وعندى ان ابا الطيب ما اراد الا ان كلبه اصطاد عليه الغزال ولم يقتله حتى ذكّاه هو فهذا علمه بالمقتل أنه تجنبه والله تعالى اعلم •

وقال في كلب آخر وذكر المنظر وكان جبليا :

وشامخٍ من الجبال أقودِ

فَرْدٍ كيافوخ البعير الاصيد

تأمل هذه الصورة •••• خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى راس البعير وهو يرغو ويتشامخ •

يُسارُ من مضيقه والجلمد

في مثل مَتْنِ المسد المُعقد

وهنا تجربة ومشاهدة • وما أحسب احدا جرب ممرات الجبال الا يرى جودة ما ذكر ابو الطيب ههنا •

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الاخضر النضر الندى فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب •

فثار من اخضر مَعْطُورٍ ندى
كأنَّهُ بدء عِـذَارِ الأَمْـرد
فلم يَكَدْ الا لحَتْفٍ يهتدى

ومن قطعة المُعْجبات ، وهي مما يلحق بباب الصيد قوله يصف عين باز :

اذا نَظَرَ البازُ في عِطْفِه   كَسَتْهُ شُعاعاً الى المنكب

وهذه صورة ناطقة .

وباب الشَّراب يلحق بباب الصَّيد ، ولم يَكُن أبو الطيب بصاحب شراب ولكِنْ له في ذلك البَيْتُ والبيتان ، وقد يُحْسِن كلَّ الاحسان كعادته فيما يقول ، مثلا :

وَوَقْتٍ وفَى بالدَّهْرِ لى عند وَاحدٍ
وفى لى بأَهْلِيه وزادَ كثيرا
شَرِبْت على استْحسان ضَوْءِ جبينِه
وزَهْرٍ ترى للماءِ فيه خريرا

وقوله :ـ

أُحِبُّ حمصا الى خُناصرة   وكلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ محياها
حَيْثُ التقى خدها وتفاح لُبنان   وثَغْرِى على حمياها
وصِفْتُ فيها مَصِيفَ باديَةٍ   شَتَوْتُ بالصَّحْصَحانِ مشتاها
إن أَعشبت رَوْضَةٌ رعيناها   أو ذُكِرَت حِلَّةٌ غزوناها
أو عَرَضت عانَةٌ مقزَّعةٌ   صِدْنا بأخرى الجِيادِ أُولاها
والخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وطاردة   تَجُرُّ طُولَى القَنا وقُصَراها

وما أظن ان أحدا اثبت صورة تفاح لبنان كما فعل ابو الطيب هنا
وفي هذه القصيدة لفتات أُخَرُ بارعات جدّا ـ مثل قوله :

تعوم عَوْمَ القذاة في زبدٍ
من جُودِ كفّ الامير يغشاها

والصورة منتزعة من إزباد السيول وما يطفو عليه من غثاء •
وقولـه :ـ

أبَا شجاعٍ بفارس عَضُدَ الدولة فَنَّا خسرو شهنشاها
أساميًا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها
تَقُود مستَحسن الكلامِ لنا كما تَقُود السحابَ عظماها

وهذا موضع الاستشهاد وفي طيّه معنى مشاهدة سحابة كبيرة تبرق
وترى صغار السحب نحوها مُرْقِلات • وعين هذا المعنى أشار اليه في قوله
الذي مر آنفا :ـ

تلاك وبَعْضُ الغَيْث يَتْبَع بعضه
من الشأم يَتْلُو الحاذقَ المتعلم

ومما جَمع فيه بين القنص وذِكر الليل والصَّيد والشراب قوله :ـ

تَذكّرت ما بَيْن العُذَيب وبارق
مَجَرّعوالينا ومَجْرَى السوابق

وصُحْبَة قَوْمٍ يقتلون قَنيصهم
بفَضْلَةِ ما قد كسروا في المشارق

تأمل هنا تسجيله لِينَ ثرى الثوية وطِيبَ مسه ـ ووازِنْ بين هذا
قوله الذي مر آنفا :

لم نفتقد منك من مُزْنٍ سوى لَثَقٍ

وقولـــه :ــ

كأنَّ الجــوَّ وَعْث أو خبــار

الوعث الرمل الذي تغيب فيه الارجل ، هكذا شرحه العكبرى ، والخبار الارض اللينة ـ لينا تسوخ فيه الاقدام كما يبدو من السياق ، وهذا خلاف الثرى الذي كأنه عنبر في المرافق بلا شــك • وقبل الشــطر الرائي الذي استشهدنا به آخرا قوله ، وفيه روح ما ذكرناه من خَلْط منظر الطبيعــة بحركة القتال :

فأقبلَها المُروجَ مُسَــــوَّمات ضَوامِرَ لا هِزال ولا شيار

وقوله لا شيار أي لاسمان

تُثيرُ على سَلَمْيَةَ مسبطرا •••

أي عَجاجاً مُسْبَطِرّاً أي ممتدا •••• قال الآخر يصف سير ناقته :

ومن سَيْرِها العَنَقُ المسبطر والعجرفيَّــــةُ بعــــد الكلال

هذا ••••••

تُثيرُ على سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرّاً تَناكر تَحْتَه لولا الشِّعــــار

عجاجاً تَعْثُر العِقْبَان فيـــه كأنَّ الجوَّ وَعْثٌ أو خبــار

ومما يلفتُ النظرَ اليه ههنا استكمالُ الصورة ••••••• المروجُ والعجاجُ والعِقْبانُ ، والخَيْلُ بطبيعةِ الحال ، في مُقَدَّمَةِ المنظر • ونعودُ الى الأبياتِ القافية :ــ

ولَيْلاً توســـدنا الثَّوِية تَحْتَـــهُ

كأنَّ ثراهـــا عَنْبَرٌ فـــي المرافق

بـلادٌ إذا زَارَ الحسان بغيرهـا
حَصَى تُرْبها ثَقَّبْنه لِلْمخَانق

وكما اثنى على الثرى ، اثنى على الْحصَى ـ وما احسب الا ان الأَندلسية رحمها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :ـ

يَروع حَصاهُ حاليَة العذارى فَتَلْمِسُ جانِبَ العقدِ النظيمِ

والبيت جيّد •••••• والتوليدُ في الشعر مذهب مُتَلَئِبٌ ، يأخُذُ الاخير عن الاول ••••• وكلءٍ اولئك صَوْبُ الْحِجَا كما قال ابو تمام •

سَقَتْنِى بهـا القُطْرُبُلّيَّ مليحةٌ
على كاذِبٍ من وَعْدها ضَوْءُ صادق

الى آخر ما قال ، وانما اوردنا هذه الابيات لمكان وصف الحصى والثرى وحياة العراء والهواء الطلق فيها •

هذا ••••••••

ولابى الطيب بعد مَواضعُ أطالَ فيهن وَصْفَ الطبيعة بَعْضَ الطول ورُبَّما كان ذلك عن اقتراحٍ من ممدوحيه ، على أَنه لم يخرج عن مذهبه من جعل كُلّ ذلك طَرفاً من حيويته هو وحركِته الدائبة ، وإحساسه القويّ بتجارب ما شاهد وانطبع في فؤاده ودفعه الى التغنّي والبيان •

من ذلك أبياتُه في البحيرة التي جعلها خاتِمةَ مدحه لعلى بن ابراهيم التنوخي وفيها قوله :

لولاكَ لم أَتْرك الْبحيرةَ والـ ـغورُ دفيءٌ وماؤها شبمُ
والمَوْجُ مِثْلُ الفحول مزبدَه تَهْدِر فيها وما بها قَطَمُ
والطَّيْرُ فوق الحبابِ تَحْسبها فُرْسانَ بُلْقٍ تَخُونها اللُّجُمُ

كأنَّها والريـــاح تَضْربهـــا جَيْشَا وَغىً هـازِمٌ ومنهزم
كأنَّها فـي نَهارِهـا قَمَرٌ حَفَّ به من جِنَانِهـا ظُلَم
نَاعِمَةُ الْجِسْمِ لاعِظَام لهـا لها بَنَات ومـا لهـا رَحِم
يُبْقَر عَنْهنَّ بَطْنُهـا أَبداً وما تَشـكَّى وما يسيل دم
تَغَنَّت الطَّيْرُ فـي جوانبهـا وجادَت الأَرْضَ حَوْلَها الديم
فهـي كمـاوِيَّةٍ مطوقـة جُرِّدَ عنهـا غشاؤُها الأَدَم
يَشينُها جَرْيُهـا على بَلَدٍ يَشِينُـه الأَدعيـاءُ والقَزَم

الى آخر ما قال ....

والابيات في جملتها جيدة . وفي البيت الاول رضا بالدِّفْءِ وحُبٌ له . ووازن بين هذا وقوله :ـ

وقَدَ نَدَفَ الصِّنْبُر في طُرْقها العُطْبا

وقولـه :

يَقْمِصن في مِثْلِ الْمُدى من باردٍ
يَذَرُ الفُحوُلَ وهُنَّ كالخصيـان

وقولـه :ـ

يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رِيقَ الباصق

والبيت الثاني فيه الاحساس بِقُوَّة الموج وازياده .... وقد جاءت هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :ـ

واحْـذَرْه اذا كـان مزبـدا

وفي قوله :ـ

ومَوْجُ المنايا حَوْلهـا متلاطم

وقوله « والطَّير فوق الحباب » أثبت فيه انطباع صورتين : الطَّير والامواج وأحسب ان اهتمامه بتشبيه الموج بالخيل وفرسانها اضاع عليه اكمال ما بدأ فيه من أمر صورة الطَّير •

وصورة تشبيه الموج بالخيل اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في الميمية ذات الهاء الساكنة في مدح سيف الدولة :ـ

وأحسَنُ من ماءِ الشبيبةِ كلّه
حيا بارقٍ في فازةٍ انا شائمه

عليها رِياضٌ لم تحكْها سَحَابَةٌ
وأغْصانُ دَوحٍ لم تُغَنِّ حَمائِمه

وفَوْقَ حواشي كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ
من الدرِّ سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ نَاظِمه

تَرى حَيَوانَ البَرِّ مُصْطَلِحاً بِه
يُحارِبُ ضِدٌّ ضِدَّه ويُسَالِمه

إذا ضربتْه الرِّيحُ ماجَ كأنه
تَجولُ مَذاكيه وتَدْأَى ضَراغِمه

الشاهد قوله « تجول مذاكيه » ـ وغير خاف ان هذه الصورة أشبه بامواج البحيرة تهب عليها الريح منها بأمواج البحر ذى الثَّبج الغُطَامِط وقوله :ـ

كأنَّها في نهارها قَمَرٌ حَفَّ به من جنانها ظلم

فيه ما قدمنا من قُوَّة شعوره بضوءِ القمر وبهاءِ اشعاعه • ثم أحسبه نظر فيه الى قول ابى تمام :

ثَريا نهاراً مُشْمِساً قد شمابه
زَهَرُ الربا فكأنما هو مقسر

وأحسب ان مقال اندرو مازفيل Agreen Shade فيه صِبْغٌ من ظلال معنى أبي تمام إذ لا يكون الظل أخْضَر إلا اذا كان عليه إشْعاعٌ من خضرة الورق •

وعَجْز قوله :ـ

نَاعِمة الْجِسم الاعِظام لها لَها بَنَاتٌ ومالها رحم

مع ما فيه من تصوير حيوان الماء دون صدره ـ بل يوشك صَدْر صَدَره ان يكون هو لب البيت « ناعمة الجسم » لما فيه من قوة الاحساس بلين مس ماء البحيرة وهي ساكنة وقوله :ـ

تَغَنَّت الطير في جوانبها وجادت الارض حَوْلَها الديم

حي الصورة ، مشرق بالضوء والنسيم ورنات موسيقا الطبيعة •

وقوله :ـ

فهي كماوِيَّة مطوَّقة جُرِّدَ عنها غشاؤها الأدم

كأنَّه مأخوذ من قول امرىء القيس :ـ

وعَيْنٍ كمراة الصناع تديرها لمَحْجِرِها من النَّصيف المُنَقَّب

وهو جيد في التشبيه . الا ان الصورة التي مرت في قوله « كأنها في نهارها قمر » اوضح وأجود •

ثم قوله :ـ

يَشينُها جَرْيُها على بَلَدٍ يشينه الأَدْعياء والقزم

تتمة لما كان ابتدأ به وَصْف البحيرة من قوله :ـ

لولاك لم أَترك البُحَيْرة َ والـ غور ُ دَفِيء" وماؤهـا شبم

وهو في جملته قريب من قوله في ما بعد ، عندما رأى شعب بوان

أَعن هذا يُسار ُ إلى الطعان

ولا يَخفى ان التعبير هنا أنضَج ُ وأجود • على أن المعنى الذي أراده في الميمية هو عَين ْ المعنى الذي استطاع إيضاحه وتَبْيينه ههنا ـ وهو ضرورة مغادرة الخفض ِ والطيبات من أجل الحَرب ذات الشدائد ، مما لا يجد المرء منه بُدّاً في كثير من الاحيان •

واحسب ان هذا المعنى عينه هو الذي أجمله وجاءَ به على سبيل الحكمة في قوله :ـ

ومُراد ُ النفوس ِ أصغَر ُ من أَن تَتعادى فيه وأَن تتفانى
غَيْرَ أَنّ َ الفتى يلاقي المنايا كالحات ٍ ولا يلاقي الهوانا

والادعياء ُ والقزم من مَعْد ِن الهوان وضريبته بلا ريب •

هذا ومن ذلك ايضا لاميته الارجوزة ، التي وصف بها الصيد مع عضد الدولة ومطلعها :ـ

ما أَجْدر الايام والليالي •

ووزنها من السريع « مستفعلن مفعولن » وان شئت عددته من الرجز دخَله ُ القطع ـ مُسْتَفْعِلْ وَكَأَنّ َ من أَبَى هذا كَرِه َ أَن يُصار بشيء ٍ أصله وتد الى سَبَب ٍ كل منهما أصل في نظام العروض وفي هذا نظر • والأراجيز المشطورة كأنها أدنى الى النثر من القصيد المحكم ، واحسب هذه الكلمة من أبي الطيب لو قد كانت في أسلوب قصيده ِ المحكم لكان مكانها من شعره أعلى وأفحل •••••••

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بَابها لما اشتملت عليه من ضُروب التأمل والنظر الدقيق والتجارب السريعات المتلاحقات مع سَلاسةٍ وانفاس مَرَحٍ وفكاهة •

بدأ بمقدمة قصيرة تغنّى فيها بشيء من الفخر اولا :ـ

ما أجدر الايـــام والليـــالي   بأن تَقُول ما لـــــه ومالي

لا أن يَكون هكذا مقـــالي   فتىً بنيـــــران الحروب صالي

وهذا كما ترى فيه معنى ضِيق نفسه بما لُزَّ اليه من صراع •

منها شرابي وبهـــا اغتسالي   لا تَخْطُر الفحشاء لي ببال

وأحسب نفى الفحشاء عن نفسه دعاه اليه قوله «وبها اغتسالى» في قافية الشطر الذي قبله ، فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى ، حتى اذا قال :

وكيف لا وانمـــا إدلالـــي   بفارس المجروح والشـــمال

أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على الاعـداء •

حتى اتّقت بالفرّ والاجفـــال   فهـــالِكٌ وطـــائع وجـــالى

ثم أخذ من بعد في التماسِ اللّذات الشـــريفة لنفسه بالصَّيد وهو نزهة الملوك •

سَارَ لصَيْد الوحش في الجبال   وفي رقاق الارض والرمـــال

على دمـاء الانس والاوصـــال

وهذه صورة فظيعة ، وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة عند أحد الامراء ، فأصاب حافرُ فرســـه بَعْض أوصـــال القتلى عنـــد الباب •••••• فتأمل •

مُنْفَرِدِ المُهْرِ عن الرِّعـــال

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدبير محكم .

ما يتحركن سوى انســـلال　　فهن يُضْرَبن على التصهـــال
كلُّ عليـــل فوقهـــا مختال　　يُمْسِكُ فاه خَشْيَةَ السعال

وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤبة يصف الصائد حيث اختفى ينتظر ورود الوحش :-

فباتَ والنَّفْسُ من الحِرْصِ الفَشَقْ
في الزَّرْبِ لو يَمْضُغُ شَرْياً ما بَصَقْ

أي من حرصه الشديد ألا يســـمعه الوحش فينفر كان في زربه وهو مخبؤه لو مَضَغَ حنظلا - والشَّرْى هو الحنظـــل وهو أمرّ الاشـــياء - ما بصَقَ .

وليت شعري عن رؤبة كيف غفل عن صَوْت مضغ الحَنْظل نَفْسه ولعله ان يَعْتَذر معتذر له بأنَّ لَو" تفيد عدم الوقوع اذ هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره .

يمْسِكُ فاه خَشْيَـــة السعال　　من مَطْلع الشـــمس الى الزوال

ثم أخذ بَعْد في صفة صَحْراءِ الأرزن وحيوانها وما رَوَّعهـــا به الاميرُ وصحْبه من دَمَوِيَّة واصطياد .

سَقْياً لدَشْتِ الارزن الطّوال
بَيْنَ المروج الفيحِ والأَغيال

هذه هي الصورة الكبيرة العامة - صَحْراء واسعة ممتدة بعضها مروج وبعضها غاب .

دَانى الخنانيص من الأشبال

مُستَشرف الدبّ على الغزال

مُجتمع الاضداد والاشكال

الخنانيص صغار الخنازير ... والمكان كما ترى أشبه شيء بالغابات سيحية التي تجعل الآن ملاجىءَ لنادر الوحش في أواسط أفريقية مثل كينيا وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كأن فنّا خَسْرَ ذا الافضال

خافَ عليها عَوَزَ الكمال

فجاءَها بالفيل والفيَّال

اذ لم يكن دَشْتُ الارزن نَفْسه مكان - فَيلة - ثم هذه فيلة من نوع المَرَوض المقاتل ، فهي كالخيل ليست من الوَحْش ولكن امتداد" بشر .

ثم اخذ أبو الطيب يَصِفُ ضروب الوحوش فافتنّ في ذلك أي فنن مثل قوله في وصف الايائل وقرونهن الطوال الثقال :

وُلِدْنَ تَحْتَ أَثْقَل الأحمال

اذا تَلَفَّتْنَ الى الاظلال

أرينْهن أَشْنع الامثال

كأنمَّا خُلِقْن للاذلال

زِيادَةً في سُبَّة الجهال

لان قرونها طوال ثِقال بلا جدوى فهي مَمّا كأَنّهُ لم يُخْلَقْ إلا لان يُسَبّ به من يُسَبّ فيقال هذا ذُو قرون إذا كانت زوجته تَخُونه .

والعُضْوُ ليس نافعـــا في الحال
لســـائر الجِسْمِ من الخبـــال

ثم اخذ في صِفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنّها ليست لها سِبَال ، جَمْع فادر :ـ

وأَوْفت الفُدْرُ من الأَوْعال   مُرْتَدْياتٍ بقِسيِّ الضّـــال

يعنى قرونهن شبهها بقسيِّ الضال وهو ضَرْب من السِّدْرِ مستقيم الغصون ولعمري إن الفدر قرونهن انفسها مما كانت تُجْعَلُ اقواسا فيكُنَّ في ما ذكروا شديدات النزع :

لهـــا لِحَىً سُودٌ بلا سِبال   تَصْلحُ للاضْحاكِ لا الإجْلال

ثم اخذ في صِفة هذه اللّحى المضحكات ، وأنّها ليست لها سِبَال ، بدليل قوله في هجائه كافورا وصحبه :

أغاية الدِّين أن تُحْفوا شواربكم •••

الابيـــات ••••••

وانها تُضَمَّخ بالابوال والزبل ••• ولَيْتَ شعري عن أبى الطيب كيف كان يقول لو علم أن بَعْضَ الناس هكذا يفعلون •

كُلُّ أثيثٍ نَبْتُها مِتفـــال   لم تُغْذَ بالمِسْكِ ولا الغَوالى
تَرْضَى من الأدْهَانِ بالأَبْوالِ   ومن ذَكِيِّ المِســْكِ بالدَّمال
لو سُرِّحَتْ في عَارِضَى مُحْتال   لعدَّهـــا من شَـــبكات المـــال

وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائلة ـ ولا زالت هذه التجارة بين البشر ذات رواج •

ثم أخذ يصف المقتلة الرهيبة التي تلت لتلك الوحش اللائي كن قبل
ـيس آمنات .

ـد اودعتهـا عتل الرجـال   في كـلِّ كِبْدٍ كَبِدَىْ نِصال

فهُنَّ يهوين من القِلال .

أي رؤوس الجبال .....

مَقْلوبَةَ الأَظْلافِ والإرقال

اذ صرن جَنائِزَ بعد نَبْضِ الحياة ..

يُرْقلْنِ في الْجَوِّ على المَحال

أي على فَقار الظهر ...

فـي طُرقٍ سَريعة الإِيصـال
لا يَتَشـكَّيْنَ مـن الكـلال
ولا يُحاذِرْن مـن الضـلال

يا للأسف ....

ثم طفر خَياله فذكر جَزِيرةَ العرب . حَيْثُ بُسَيْطَةُ التي جابَتْها
ـكْبه جَوْبَ الرداء .

ـجابت بسَيْطَةَ جَوْبَ الرداءِ   بَيْنَ النعـامِ وبَيْـنَ المهـا

فخافَ على وَحْشها وَوحش نظيراتها ذواتِ النَّعامِ والمها والضباب
والاورالِ مِنْ بأسِ الامير أن يصيبها مِثْلُ ما أصاب الفُـدْرَ
ـلايائِلَ بدَشْتِ الأرزَن :

ـوَحْشُ نَجْدٍ منه في بَلْبال   يَخَفْنَ فِي سَلْمى وفي قِيال

سَلْمى جَبَل طيىء وقيال لبنى عامر

ـوفِرَ الضِّبـابِ والأَوْرال   والخاصباتِ الربْـدِ والرئال

والخاصباتُ النعام والرئالُ اولادهُن جَمْعُ رأْل

الظبى والخنْسَاءِ والذَّيالِ يَسمعْنَ من أخْباره الأزوال

أي العجيبة .

ما يَبْعَثُ الخُرْسَ على السؤال

فحُولُهــا والعُوذُ والمَتَالِي تودُّ لــو يُتْحِفهـا بوالى

يَرْكَبُها بالخَطْم والرِّحــال

أي فتَصير أليفة مُذْعِنة كالإبل والبَقَر والضأْن والمعزى

يُؤْمنهـا من هــذه الأهْــوال

ويَخْمُس العُشْــبَ ولا تُبالي

أي يأخذ منها خُمْسَ العشب فيجعله من نصيب غيرها ممن تألفهُ ابْنُ آدم من قبل

وفي الوحش من ضبابٍ وأورال وبعضِ الغزلان مَراكِبُ للجن فلابُدَّ من قهر الجن -

فأكْمَلَ ابو الطيب طَفْرة خياله البديعة بقوله :

لــم يَبْقَ الا طَرَدُ السعالى

وهن نساء الغيلان ، ضَرْب من الجن ، وقالوا مِنْهن نِساءُ صدقٍ ، واشار الى هـــذا المعنى أبو العلاء في رســالة الغفران حيث ذكر حَديث تأبط شرا وأبياته التي يقول فيها :

انا الذي نَكَح الغيــلانَ في بَلَدٍ

ما طَلَّ فيــه سماكىٌ ولا جــادا

بحَيْثُ لا يَعْسِتَ الغادى عَمايته
ولا الظليمُ بـــه يَبْغِي تِهبَّـــادا

وقد لَهَوْتُ بمصقولٍ عوارضــها
بِـكْرٍ تنازعنى كأسْـــاً وعنقـــادا

ثم انْقضَى عَصْرُها عنِّى وأَعقبـه
عَصْرُ المشيب فقُلْ في صالحٍ بادا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فِـكَرة رسالة الغفران كلها من شَطَحات أبى الطيب في هذه اللامية ـ كالذي تقدم من طَلَب الوحش أن يجعل الامير عليها واليا واذعانها لتَركَب ثم ما صار اليه ابو الطيب بعد من صِفَة مطاردةِ السعالي على ظهور الابل في الليالي غير المقمرات ٠

لــم يَبْقَ الا طَرَدُ السعالى
في الظُّـــلمَ الغــائبة الهـــلال
عـــلى ظُهـور الإبل الأُبَّـــال

أي الطويلة الصبر على العطش ٠

فقـــد بَلغَت غـــاية الآمـــال
فلم تَدَعْ فيهـــا سوى المحال
فـــي لامكانٍ عنـــد لا مَنالِ

وفي رسالة الغفران شواهد قوية من معنى انتفاع أبى العلاء بأخيلة هذه الأرجوزة ـ من ذلك ما جاء في نعته مراكب الجن على لسان أبى هدرش :

[illegible]حَسْنا في الجُنْح خَيْلٌ لها أَجْنحة ليست كخيـــل الأنيس
[illegible]نَقٌ تســـبق ابصــــاركم مَخْلوقة بـــين نَعــامٍ وعيس

كأنه يعلق بهذا على قول أبى الطيب :

في الظُّلم الغائبة الهلال على ظهور الإبل الأُبَّال

كأَنَّه كَوْنُ الابل أُبَّالاً وحده لا يكفى ، فينبغي ان تكون غريبة الهيئة بَيْنَ النعام والإبل ، فهذا اشبه بالجن كما ترى . ولعله أخذ قوله (بين نعام وعيسٍ) من قول أبى الطيب :

بَيْنَ النعام وبين المها

ومع ان المراد ببَيْن هنا التوسط ، لا يخفى ان صُورةَ نَاقَةِ أبى الطيب بَيْن هذين الصنفين قد تسنح الخيال شَكْلاً أشبه بما نعته أبو العلاء ...... وهذا بَعْدُ باب مما يطول فيه مَجال الاستقصاء فنكتفي منه بهذا القدر ان شاء الله .

هذا واختتم أبو الطيب لاميته بقوله :-

وربَّ قبح وحُلىً ثقالِ أحْسَنُ منها الحُسْنُ في المعطال

فَخْرُ الفتى بالنفس والفعال من قبله بالعمِّ والاخوال

واحسبه جمع الاخوال لما فيه من معنى الام ، كأنّ مراده « بالام وعشيرتها » ، وذلك لانه كان يسكنه ان يقول بالعم أو بالخال ، وليس بِجَيِّدٍ جَوْدَةَ هذا والله اعلم .

وهذه المعاني بعد ، حُسْن المعطال والفخر بالنفس والفعال قديمة عميقة في قلب ابى الطيب وقد مر بك قوله :-

أَغناه حُسْنُ الجيد عن لُبس الحلى
وعَادَةُ العرى عن التفضل

كأنه مُضَمَّخ بَصَنْدَل

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقوله وعادة العرى عن التفضل » يستفاد منه أن النساء على زمانه كنّ ربما تزين ببعض هذا . وقوله من البائية :ـ

ولا بَرَزْنَ من الحمّام مائلةً أوراكهن صَقيلاتِ العراقيب

صريح في هذا المعنى .

وقوله :ـ

ابن من بعضه يَفُوق آبا الباحث والنَّجْلُ بَعْضُ من نجله

نما يَذْكر الجدودَ لهم من نَفَروه وانْفَدوا حيلَه

وقوله :ـ

أرى الاجداد تغلبُها جميعاً على الاولادِ اخلاقُ اللئام

ولست بقانعٍ من كلّ فَضْلٍ بأن أعْزى الى جَدٍّ همام

وهذه النهاية أعنى نهاية لاميته حيث قال :ـ

نحر الفتى بالنفس والفعال من قبله بالعم والاخوال

من سنخ ما ابتدأ به اولا حيث قال :

ما أجْدَرَ الايام والليالى

بأن تقول ماله ومالى

لا أنْ يكونَ هكذا مقالى

فتىً بنيرانِ الحروب صالى

منها شَرابي وبها اغتسالي

لا تَخْطُرُ الفحشاءُ لى ببال

في هذه الارجوزة من خفة الروح وعفوية الاداء وسَخاءِ الطبع ما كأنه مباين للمأْلوف من سخونة ابى الطيب وذكورة شخصيته وصرامتها ، ولذلك ما زعمنا آنفا انها في بابها فريدة ، على ان جميع هؤلاء الصــفات اللاتى هي بِهنَّ فريدة مما اختزَنته عبقرِيَّة ابى الطيب في أغوارِها دَهْرا . وهو بعد القائل :ـ

لَقَد أصْبَحَ الْجُرذ المستعِير أسير المنايا صَرِيعَ الْعَطَب
رماه الكنانىّ والعامرىُ وتلاه للوَجْه فِعْــل العرب
كلا الرجلين اتّلى قَتْلَهُ فأيّهما غَــلَّ حُرَّ الســلب
وأيّهمـــا كان من خلْفِه فإنَّ به عَضَّــةً في الذنب

فهذه من مَعْدِن

لو شرَحت في عارضَىْ مُحْتال لعدَّها من شبــكات المــال
بين قُضاة السوءِ والجُهَّــال

والقائل :ـ

صحبْتُ في الفلوات الوَحْشَ مغتربا
حتى تَعَجَّب منى القُــور والاكــم

ومحل الاستشهاد ههنا ان هذا البيت قاله في ميميته .

واحرَّ قلبــاه ممن قلبــه شبم

وكأنما يأنس به إلى الوَحْشِ من مجلس سيف الدولة . وقد ذكر ابن هشام صاحب مغنى اللبيب واو الثمانية فنسب أَمْر التمسك بقضيتهــا الى بعض ضُعَفاء النحاة مثل ابن خالويه ، ويبدو لى أنه ما نص على ابن خالويه

ضعيفاً في النحاة إلا لما كان من مكانه في عداوة أبي الطيب وما ذكروا أنه شجّه بمفتاح لما انشد هذه القصيدة ، قالوا فقال أبو الطيب :ـ

إن كان سَرَّكم ما قال حاسدنا فما لِجُرْحٍ إذا ارضاكم ألم

يعنى بالحاسد ههنا جماعة الحســـاد كلّهم ابنَ خالويه وابا فراس وهلم جرا ....

ومن هنا ترى وَجْه صوابه اذ استقرب الوحش بالقور والاكم دون هؤلاء .

وما أبْعد في هذا الذي صنعه عن مذهب الشنفرى حيث قال :ـ

أَقِيمُوا بنى أُمِّى صُـــدور مطيكم
فإني الـــى قَوْمٍ سواكم لأَمْيَـــل

ولى دونكم أهلون سِيــد عَمَلَّسٌ
وأَرْقط زُهْلُولٌ وعَرفاءُ جَيــأل

همُ الاهل لا مَسْتودَعُ السِّر ذائعٌ
لديهم ولا الجانى بما جَرَّ يُخْـذَل

وقال يذكر بأس سيف الدولة في العرب والروم في لاميتـــه « أَجاب دمعى وما الداعي سوى طلل » :ـ

فالعُرْب منه مع الكدرىِّ طائرةٌ

يعنى القطا وارتباطه بالعرب وارضهم معروف وقد تعلم في ذلك قوله صاحب اللامية :ـ

كأَنَّ وغاهــا حَجْرَتَيْهِ وحولـــه
أَضــامِيُم من سَفْرِ القبائل نُـزّل

فهـــذا ....

والروم طـــائرة منــــه مع الحجـــل

والحَجَلُ شمالى المنزع وهو من حِسان الطير أكبَر من الحمام والقطا

وما الفرارُ الى الأجبــال من أَســدٍ

تَمْشى النَّعام به في مَعْقِلِ الوعـــل

وكلا النعام والوعل فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداءَ سيف الدولة من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعول — ولمعرفة ابى الطيب بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعول والمهـــا والغزلان ، لا على سبيل التقليد والمحاكاة ، في شِعْره كثيرا — من ذلك ما تقدم ومثل قوله :

فأَتَيْتَ معتزِمـــاً ولا أَسَدٌ ومضَيْتَ مُنْهَزِماً ولا وعل

وفي الابيات اللامية المتقدمة قوله :ـ

فكلَّما حملت عذراءُ عنـــدهم فإنما حملت بالسَّبْى والجمـــل

جاز الدروب الى ما خلف خرشنة « وهي من أرض الروم » وزال عنها وذاك الروع لم يزل .

وكأن استغراب الروم وبنى عمهم الفرنجةِ للجمل ونِسبَتَهم إياه الى دار العرب والاسلام قد كان منذ ذلك الزمان وما أحْسِب أن احدا أبان عن هذا المعنى كما صنع أبو الطيب ههنا — فهذا من باب ثَباتِه على المحكّ الذي لا ينكر مما نبَّه عليه ابْنُ الاثير في المثل السائر .

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :ـ

مغَانِى الشِّعْبِ طيباً في المغانى

والنصَّب هو الوجه والتقدير تَزِيد طيبا أو تَطِيب طيبا أو طيبا لها

بمنزِلة الرَّبيع من الزمان

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسان

وكأنه هنا يلوم نفسه على عظم ارتياحه لهذا المكان وفرحه به ••••••• وفي القصيدة حنينٌ الى بلاد العرب كأنه يحمل في طياته نوعا من الشعور الخفى بقرب المنية :

ملاعِبُ جِنَّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

هنا أبو الطيب مباعد نفسه عن بهجة منظر الشعب ومرح مراه مخالطُه نَوْعٌ من تردّدٍ بداوة واستحيائها ••••• ثم إذا به يدْعُوه المنظر الكريم الى ان يَنْسجم معه ويتمتع به ـ فكنَى عن نَفْسه بحِصانه ، وأوْرد ذلك مَوْردَ الجماعة ، لما يناسب ذلك رُوحَ التباعد والترددِ والاستحياء ••••

ونذكر هنا مقال ابن رشيق أن ابا الطيب كان مما يأْنسُ الى الخيل في الباب الذي يقع فيه ذِكْر الأبل والنسيبِ ويَسْتَعمِلُ فيه بَعْضُ المولدين ذِكْرَ الحدائق « والنواوير البلدية » •••••• فقد جمع أبو الطيب ذَلِك كله جميعها ههنا •

طبَتْ فرْسانَنا والخَيْل حتى

خَشيت وان كَرُمْن مِن الحِران

وانما كرمت لانها عربية مثله ، وكغربته كانت غريبة ـ فجعل الرمز والكناية كما قد منا واضح ••••••••••

ثم اخذ جَمالُ الشعب وفتنته يغلبان عليه :

غَدَوْنا تَنْفضُ الأغصانُ فيه

على أعرافها مِثْلَ الجمان

فَشَرتْ وقد حَجَبْنَ الشَّمْسَ عنى
وجِئْنَ من الضيــاء بمــا كفــانى

ونَسِيَ الفتى العربىُّ مفاوزَ بلادِ العرب وكلَّ قفرٍ :

عَليقِي مَراعِيــه وَزادِيَ رُبْــدُه
وألقى الشَّــرْقُ منهــا في ثيــابى
دَنانيــراً تَفِــرُّ مــن البنــان

ولا يَخْفى أن الشاعر ههنا انسجم مع رشاقة حركةِ الغصون ولُطْفِ استدارة الشعاع وتَحَرُّكه على الثياب وهُوَ الكريم وحصانه الكريم كلاهما سائرٌ ومنتش بهذه الكأس الدهاق من خَمْر الحياة :ـ

لهــا ثَمَرٌ تشير اليك منــه بأَشْرِبَةٍ وقفــن بــلا أواني

هذا البيت كما ترى ذِرْوة ، من حيث اتصاله بمعنى ما قبله اذ فيه قد اختفى شعور الغربة والبعد كل الاختفاء ، وبَلَغَ الافتتان أَوْجــه ومن حيث انه وصف حيٌّ دقيق ، وليت شعري عن اندرو ما قيل حيث قال :ـ

The nectarine and the curious Peach
Into my hands themselves do reach.

هل نظر في قوله the curious Peach الى قول شاعرنا :ـ

غَريب الوجه واليد واللسان ؟

لها ثَمَرٌ تشير اليــك منــه بأشْــرِبة وقَفَن بــلا اوانى

تأمل قوله :ـ وقفن بــلا اوانى لاريب نظر أبو الطيب إلى قَوْل ابْن الرومي في العِنَب « كأنه مخازن البلور » ولكن هذا تشبيه بارع ليس الا .... لا يذهلنا بالحيوية وصِدْق التجربة كما يذهلنا قول ابى الطيب .

وأمواهٌ تَصِلُ بها حصاها
صَليلَ الْحَلْىِ في أيدى الغوانى

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جَمالِ الحصى عليه رقراق الماء وحكايةُ جميع ذلك صَوتاً ومنظرا من طريق الجناس في الصادات والتشبيه في قوله صليل الحَلْى في ايدى الغوانى •

والمعنى قديم في نفس ابى الطيب بآية قوله :

شَرِبت على استحسان ضوء جبينه
وروض ترى للماء فيه خريرا

وقوله :

بلادٌ اذا زارَ الحسانَ بغيرها حَصى تُرْبها ثَقَّبْنه للمخانق

ولكنه ههنا أحكمه وبلغ به غايةَ الجودة •

وقد اخفت الاندلسية سَرِقتها مِنْه حيث قالت :

وقَانا لَفْحَةَ الرمضاء وادٍ
سقاهُ مُضاعَفُ الْغَيْثِ العميم

نَزَلْنا دَوْحَهُ فحَنَا علينا
حُنُوَّ المرضعاتِ على الْفَطيم

وأسْقانا على ظَمأٍ زُلالا
ألذَّ من المُدامة للنَّديم

يَروع حصاه حاليَة الْعَذارى
فَتلْمِسُ جانبَ الْعِقْدِ النظيم

والابيات في جُمْلَتها مُتأَثرة بأبيات الشِّعْب ؛ صِفَةُ الظِّل والنْخَفَضِ والنّعمة ثم بَيْت الحصى يَنْظر مباشرةً الى بَيْتِ ابى الطيب ويُخْفِي هذا النظر بهذه الصورة الْحَسَنةِ من تَوَهُّمِ الحسناء أَنّ عقدها انْفَصم فتلمسه وما هُوَ الا حصباء ذلك المكان ......

وهذا الذي أخفت به سرقتها من بَيْت مَغانِي الشعب إنما اخذنه من بيت « تَذكَّرت ما بين العذيب وبارق » وقد سبق لنا التنبيه على ذلك .

وابيات الاندلسية ـ بعد جيدة في بابها ذات تَجْرِبة مُسْتَقلَّةٍ تَحْمِل طابَعَ الأَنْدلس وما كَان عليه ظُرَفاء أهْلِها من حُبِّ الاستمتاع بالتّنزْهَة في الأَوْدية ... وفي شِعْر ابن زيدون شَواهد حسنة مِمّا يُصدّق ذلك . وههنا يُنَبّه الى أنها لاتَذْكرُ من الفاكهة شيئا ، وانما تَذْكر الدَّوْح والظل ؛ فهذا مع حلاوة الروح التي في هذه الابيات مما يجعلنا نَقْطع باسقلال تجربتها .

هذا ...

وبَيْت :

صليل الْحَلى في ايدى الغوانى

كأنه انصراف عمّا افتتن به أبو الطيب من دُعاء الثمار والأَشربة الواقفات بلا اوان له .

وسَبَح خَياله مع هذه الانصرافة الى ذكرى الشام ،

ولو كانت دِمْشَق ثنى عِنانى
لَبِيقُ الثَّرْدِ صِينِّى الْجفان
يَلَنْجُوجى ما رُفِعَت لضَيْفٍ
به النيران نَدِّى الدَّخان

أي كريم عربي ••• وفي هذا البيت روح تَرَنُّم خفى بمعنى قوله من قبــل :

ولكنَّ الفتى العــربىَّ فيهــا غريبُ الوجه واليد واللســـان

ثم انتبه مرة اخرى ، وهو بَعْد منتبه لم ينفصم عن ذلك الى شــعب بــوان :

يَحل به عَلى قَلْب شـــجاع ويَرْحَلُ منــــه قلب جبـــان

الضمير في به « يَعُود على الشعب لان سياق الحديث عنه ، يَدُلك على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غُوطة دمشق لكان وكان ••••• وفي لو ههنا معنى من معانى التمنى البعيد ••• ليت ان غوطة دمشق كانت هكذا أَمْناً وخَفْضاً وإذَنْ ما كُنْت اغادرها وأُضطر لأَن اكون غريب الوجهِ واليدِ واللسان •••• ودِمَشْقُ ههنا انما هِيَ رمز للشامِ كله ، ولما كان فيه من عَهْـــدِ سيف الدولة وحَلَب والعراق جميعا •••••••

ولكنَّ هذه الرياضَ شِعبُ بوان ، وقد اقدمت عليـــه وأنا متهيِّب" وهأنذا أُعْجَبُ به كلّ الاعجاب ••••

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظَاهِر الامر أقبل على الشعب بقَلْبٍ جبانٍ ورحل عنه بقلبٍ شجاع ••••ولكنَّ تعبيره الذي ذَكَر أَصْدَق وقد نَصَّ عليه نصاً في ما بُعد :

مَنازِلُ لم يَزلْ منها خَيَال" يُشَيِّعنى الى النّوبنَذجـــان

أي منازل الشام والشِّعب جميعا ••••• ومثل هذا المزج عنـــد ابى الطيب كثير ، وشاهِدُ الحال يَدُلَّ على أَنَّه تذكَّرَ مَنازِلَ دمشق وهو

بأرض فارس ، وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجماله وبقاء ذلك في نَفْسِه البقاءَ الطويل .

اذا غَنّى الحمامُ الورقُ فيها أجابته أغانيُ القيان

ومن بالشِّعْبِ أحْوَجَ من حَمامٍ إذا غَنى ونَاحَ الى البيان

ولا ارى « من بالشعب » اراد به أبو الطيب أحداً غير نفسه وشنان ما بين قوله ههنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشينها جَرْيُها على بَلَدٍ تَشينه الادعياء والقزَم

على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنّهُ عنى عُجْمةَ من كانوا بالشِّعْبِ ورُوحُ الأَداءِ لا يَحْتمل هذا التأويلَ . وقوله :

وقد يتقارَبُ الوصفانِ جِداً وموصوفاهما متباعدان

يُقَوى ما نَذْهب اليه ههنا ، إذ الحمام يُغَنِّين طربا ، وهو كَذلك يصنع ، بهذا النشيد الفذّ الخالد :

يَقول بشعب بَوّان حصانى أعَنْ هذا يُسار إلى الطِّعان

أبُوكم آدمٌ سَنَّ المعاصى وعلمكم مُفارقة الجنان

واذ حصان ابى الطيب فيه مَعْنى الكناية عن نَفْسه فإنه لم يغادر الشعب الا كارها كما ترى .

وأُنس ابى الطيب الى حصانه ومودته له لا يخفى . وهذا الّذي جعل ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :ـ

وقد ذكر ابو الطيب الخَيْل في كثيرٍ من شعره وكان يُؤْثرها على الإبل لما يَقُوم في نفسه من التهيب بذِكر الخيل وتَعاطِى الشجاعة فقال يذكر قدومه الى مصر على خوف من سيف الدولة :

ويَوْمٍ كليلِ العاشقين كَمَنْتُه أراقِبُ فيه الشَّمْسَ أيان تغرب
وعَيْني إلى أُذْنَيْ أغرَّ كأنَّه من الليل باقٍ بين عَيْنَيْه كوكب
له فَضْلَةٌ عن جِسْمه في إهابه تَجِيءُ على صَدْرٍ رحيبٍ وتذهب
شَقَقْتُ به الظلماء أُدْني عِنانه فيَطْغَى وأُرخيه مِرارا فيلعب
وأصْرَع أَيَّ الوحشِ قَفَّيْته به وأَنْزل عنه مِثْلَه حين أركب
وما الخَيْل الا كالصديق قَليلةٌ وان كثرت في عَيْن من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

واستشهاد ابن رشيق بهذه الابيات جيد ، لما فيها من صورة الوصف مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها • والبيتان الاولان شديدا حيوية الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا مغانى الشعب :

يقول بشعب بوان حصانى اعن هذا يسار بى الطعان
ابوكم آدم سَنَّ المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة ذات العُمْقِ الفلسفي التي بحرها جعل يغرف ابو العلاء المعري من بعد ، وفيها بَعْدُ الروح الفَكِه الساخر الذي احسسنا من انفاسه القويات في الارجوزة •

ما أَجْدر الايام والليالى

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر ـ لا أحسب ذلك في شِعرِ ابى الطيب وَحدَه ولا بالنسبة الى شِعر العرب وحدهم •••••

وفي القصيدة بَعْدُ من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصفِ الطبيعة ما لا يَتَّسِعُ له نطاق هذه الكلمة •••

ويستوقفني بعد قوله :ـ

حَمَى أطْراف فَارس شَمَرِيّ
يَحُضُّ على التباقي بالتفاني
بِضَرْب هاجَ أطْرابَ المنايا
سِوى ضَرْبِ المَثالِثِ والمَثانِي

فهذا كأنّه فيه صدىً من اغاني شِعْب بوان حمائمه وقيانه وشاعره الغريب :

كأن دَمَ الجماجم في العناصي كسَا البُلْدانَ ريش الحيقطان

مِسْكين الحَيْقطان ...... لو كان أبو الطيب رآه في الشّعب ما كان خلط جماله بصُورة الجماجم والعناصي والدماء .. ولقد تذكر خَلْطه فظاعة منظر القتل والدماء بالريحان والشقائق حيث قال :ـ

ولا تَرِد الغُدْران الا وَماؤها من الدّم كالريحان تَحْتَ الشقائق

وقريب منه قوله في « النارنج والاغصان » .
وههنا رَيْش الحيقطان ....

هل كان أبو الطيب عامدا في جميع هذا الى مُعارضة مذاهب ضعفاء شعراء زمانه من وصفهم النواوير البلدية على حَدّ تعبير ابن رشيق ومـا يجراها من الطيور والحيوان ....

.... الراكبُ الخيلَ كُلّه وإن كان بالنيران غَيْرَ موسم

أم يا هل ترى عطف أبو الطيب على الحيقطان ـ وهو طائر مليح داجن مما يتألّفه الناس ويذبحونه وينتفون ريشه ذا الالوان الزاهية كما يصنعون بريش الدجاج .....

يقول بشـعب بوان حصانى   أعن هـذا يُسار الطعـان
أبوكـم آدمُ سَنَّ المعاصى   وعلمكم مفـارقة الجنـان

رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبْدِعا مبرزا في جَميع ما راض عليه بيانه من ضروب القول فأجادَ .... وحسبنا بَعْدُ هذا القـدر من حديثه وحديث الطبيعة .

ولله الحمد اولا وأخيرا .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا .

عبدالله الطيب
١٩٧٧-٣-٢٤

* * *

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ــ بغداد

١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م

الجمهورية العراقية
وزارة الأعلام
بغداد
١٩٧٧

دار الحرية للطباعة

السعر ١٠٠ فلس

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان